المجلس الأعلى للثقافة

العاشقان

رواية بقلم

أحمد عبد الله متولى

المجلس الأعلى للثقافة

العاشقان

رواية

بقلم

أحمد عبد الله متولى



١٩٩٧

كانت عين الأميرة تبعد بين فرشاتي وبين الموديل ، وبين ملامحي وانفعالاتي ! كنت أحس أنفاسها الحارة وهي تقف خلفي . ويلمس ظهري نتوءات مدهشة ، تدفعني دفعًا إلى حافة الجنون . وأتذكر أنها الأميرة .. أنسحب داخلي ، ثمة عيون ترقبنا أنا والأميرة .. في سويعات الفراغ .. نتناقش في الفن السينمائي والأدب .. والفنون التشكيلية . لدى الأميرة مكتبة فخمة - كتب وأشرطة فيديو وهي بالكاد تقرأ اللغة العربية . ثقافتها إنجليزية ، كثيرة الرحلات إلى أوربا وعندها أكثر من خادمة إنجليزية . ووصيفات من أجناس أخرى .

ثمة عيون سوداء تطل من وجه مليح . امرأة عودها رشيق، تتعمد أن تشغلني برفق وتغزو ناظري ! امرأة تتحدث العربية بلكنة شامية .. تأمر الشغالة التايلندية بعشرات الأشياء .. وتقدم بنفسها في تودد . القهوة العربية برائحة الهال في أطباق فضية وأقداح تبرق . مع بسمة ساحرة .

من هذه المرأة الجريئة ؟ تطل الفتنة من أعطافها في غير ابتذال . مثل فاكهة ناضجة تلمع في وهج الشمس .

إنحنت تداعب طفلة صغيرة .. تلعب أمامنا فى الحديقة .. تنحنى عليها تقبلها .. لباسها يشف عما تحته .. من الأمام والجنب والظهر .. ورفعت الصغيرة إلى أعلى ، نور يطل من تحت الإبط . إنها ابنة الشام ، ونسمة الشام .

سمعت من الحاشية .. أنها متعلمة ، مثقفة ، صاحبة حظوة عند الأميرة سارة . وأن اسمها (شهيرة) . وأن لها حكايات غامضة ! .. ذلك ما دسته لى حبشية لطيفة تقدم لى الشاى .

الخادمة الحبشية تحمل بعض الأشياء وتختفى .. لتظهر (شهيرة) فى بياضها المشرب بالحمرة ، تغرى الفنان برسمها مرتين .. مرة فى لوحة ومرة يحفرها فى الفؤاد إلى الأبد . جمال أرستقراطى .. يهب نفسه فى تواضع وكأنه تضاد مقصود !

كنت أطلب أشياء صغيرة ، كأننى من نهّازى الفرص ولكنها كانت وديعة .. وداعة لا تعرف الهزيمة ، وكأنها فى استجابتها تقول نحن فى خدمتك .. وإنك فى قلب الاهتمام !

ومهما كانت الألفة بينى وبين الأميرة .. - أقصد صاحبة السمو الأميرة - فالحديث مهما بدا حميما وخاصًا .. كنت أضغطه فى قالب من الموضوعية والعلمية ! وكلما أوغلت فى الجدية تبسطت الأميرة ، وكأنها تحاول أن تحرق المسافة وتزيل العُقد !

وكأنها تساعدنى على الخروج من دائرة الاكتراث الزائد ! والفزع المزيف ! وتقول بألف إيحاء .. أنت أستاذنا ونحن تلاميذك .. فلا داعى للشعور بالدونية . وكأنه تمنحنى القدرة .. وتعلمنى .. وتنسى جهامة التقاليد وقفر الصحراء .

وكلما منحتنى جواز المرور إليها .. يصعد من أعماقى صوت لعين : لا تغتر بنفسك أنت رجل من عامة الناس ، غريب ، وفى ميزان البورصة من الهاموش ! لا تساوى شيئًا .

مالك يا ولد بهؤلاء .. أنهم طينة أخرى ! لا تغتر بأوهام المساواة . يا ولد لا تنس نفسك . لا تجعل الشيطان يقودك .. لا تنس أقدامك رمل الصحراء ! ووميض السيف الأبدى .. المساواة فى مملكة أخرى ليست فى دنيانا !

ويبدو أن هواجسى انعكست على ملامحى ، هناك عنب الشام .. والأنامل الرقيقة وابتسامة تنبض فى عشق .. ونظرات توحى بالوعد وحاجب يعلّم الغزل !

ماذا عنك أيتها المليحة .. ابتسامتك تخرجنى من الضجر وتنقذنى من صهد الصحراء ومخاوف الرمال الناعمة . تنسيك العيون الشرسة والنظرات الخبيثة واللحى المقبضة والأجسام الضامرة والأيادى القابضة على المفاجآت والأسرار .. وسكين حاد غير مرئى فوق العنق .. تنسيك حجر فوق حجر تحت حجر .. وصمت متوتر !

حين أعـود إلى بيـتى الصـغـيـر ، حيث الوحـدة .. أكـوام الكتب والمجلات وكؤوس من الشاى والقهوة ومداعبات الهاتف .. فتيات حائرات .

وحين تسربت البسمة إلى مخيلتى . يبتسم القلب .. مرحبًا بالنوم والأحلام الآتية :

ورأيت فـيـمـا يرى النـائم أن القـصـر يحتـرق ، وأننـى أنطلق فوق حصانا أبيض .. صوت صرخات فتـاتى الشامـية . أقـتحم النيـران وأرفـعـهـا فـوق حـصـانـى وأعـدو بهـا فى الفـضـاء .. فتحتضننى فى حنان . أستيقظ وقد فطنت للحقيقة التهكمية ، لعل هذا من أثر الأسـاطيـر العـربيـة وحكايات ألف ليلة .. وأقطاب الخرافات فى أفلام الفيديو .

لكننى عشت وهمًا جميلاً ، ومرة أخرى حلمت بها وكأننا صغـارا .. تبكى لأنها فقدت علبة الحلى .. تقول لى والدموع فى مقلتيها (ضاعت علبتى . وكم كانت عزيزة) أقدم لها قطعة من الحلوى .. واستيقظ على جرس التليفون .

وإذا بصوتها على الطرف الآخر .

- هل كنت نائم يا خلى البال ؟

- كيف حالك؟

- كنت أفكر فيك !

- وأنا أيضا .. صدقيني .. كنت أفكر فيك .

- ولهذا جرس الهاتف يرن طويلا ؟

- كنت معي في الحلم .

- يا حظي (قالتها بلكنة بنات البلد في بداوة رقيقة) .

- أتعرفين .. كنا من الأطفال الصغار .. في عالم لا يعرف غير الحب والبراءة !

- وأنا أيضا .. حلمت أن الدنيا تمطر فوقنا .. وجريت صوب شجرة ضخمة في حديقة شاسعة مليئة بدخان عنيد ، وكانت الأشباح تلاشت تحت كثافتها ثم وجدت معطفا على مقعد حجري .. مقعد منزوي .. ارتديت المعطف الجلدي .. وشعرت بلذة الدفء .. آلو ..

- آلو .. أسمعك .

- كيف تفسر هذا ؟

- خيراً .. أفسره حين أقابلك .

- نسيت أن أخبرك بأن المعطف يشبه معطفك .

- آه .. لقد فسرت الحلم لنفسك .

- نراك غداً .

- لا .. اليوم .. فنحن بعد منتصف الليل .. إلى لقاء .

فى الصباح يرن جرس التليفون .. ينتشلنى من الكسل . رفعت السماعة ، صوت عامل التليفون سنترال قصر الأميرة . بصوته السودانى .

- صباح الخير .

- مرحبا يا زول .

- سوف نرسل لك السائق فى الخامسة بعد صلاة العصر .

وفى تمام الخامسة وصلت سيارة القصر ، نزل السائق الهندى ، فتح الباب بأدب جم وجدت عطراً يفوح من سيدة تجلس على الكنبة الخلفية ، إنها صديقتى الشامية . الشمس ما زالت تشع حرارة ، أما داخل السيارة ، فالمكيف له تأثيره المريح ، ولا عجب فجميعهم يشتكى الزكام . وصلنا القصر بعد نصف ساعة ، كانت السيارة تمرق كالسهم فى شوارع أسفلتية فسيحة ، وتطير مناظر الفيلات والمساحات الخضراء .

قالت الأميرة : هذه الروايات الأمريكية لك . وبعض المجلات .

تقدمت الخادمة بالقهوة . شكرت الأميرة على الكتب . قالت : لماذا لا تنشر أعمالك فى كتب .. أتابع ما تكتبه .. وأعرف كم يشوهون الأعمال برقابة غبية .. أنشر فى بيروت أو لندن .

- بإذن الله .. هذا يستغرق بعض الوقت .

فاجأتنى : جمعت لك هذه الأعمال . مجموعة من القصص فى مجلد ، ودراسات نقدية فى مجلد آخر مطبوعا على الكمبيوتر وفى مجلدين أنيقين . تمنيت أن ألثم هذه الأيدى الكريمة .

يبدو أنه يوم المفاجآت .. سمعت الأميرة تقول : ما رأيك أن تقضى الصيف معنا فى جنيف ؟

- يا ليت .

ودعتنى صديقتى الشامية حتى باب القصر .. ستكون صحبة ممتازة .. لا تخلف الوعد ، أمامنا شهرا والتقت الأيدى فى حرارة الوداع .

فى اليوم التالى يرن الهاتف .

- كيف حالك ؟

إنها صديقتى الشامية قلت بحرارة : يا هلا .

- (ماذا تفعل) ؟

- اقرأ رواية .

- افضل أن ترسم .. فالأدب سوف يسحبك إلى بعيد . ولدى موديلاً ممتازة .

- من يا ترى ؟

- إنه أنا .. أم إنك تفضل الحبشيات !

- أنتِ أكبر من كل شئ . ولكن ما حكاية الحبشيات ؟
- أري مجاعة عيونك ! وعيونهن !
- سامحيني .. ما كنت أحسب أن هناك عيونًا ترقبني - الآن أفهم دعوة الناس (يا رب لا تجعل لنا جارا له عيون !) .
- إذن تعترف بولعك بالحبشيات .. لقد رأيت في نظرتك جوع نمر .
قلت متوغلاً في التحدى : صديقتى .. فلنكن صرحاء .. المرأة الحبشية قارة لم تكتشف ربما غفل عنها الرّحالة !
- ..
- آلو .
- أفكر في كلامك السخيف !
- عفواً . الحبشية وردة عنبرية .. وهذا التصريح ليس جريمة .
- هذا الكلام من خبرة القراءة أم من خبرة عملية .
- ليس من رأى كمن سمع !
قالت بغيظ : سوف ترى أن هناك الأفضل .
قلت ملاينا : يقول بيرون «ليت النساء جميعًا فمًا واحداً لقبلته واسترحت» .

قالت : فلتذهب أنت وشاعرك إلى الجحيم !

وأقفلت السماعة .. رحت أبحث عن رقمها بكل وسيلة .. وطلبت رقمها سمعت صوتها الجميل : آلو .

- أطلب السماح .. والسماح طبع الملاح .

قالت فى دلال : لقد القيت بالتحدى .. وسوف ترى يا كازانوڤا .

- هل أنت غاضبة .. سامحينى يا أجمل الجميلات .

- لست غاضبة .. يا كذوب !

سمعتها تضحك - إذن إلى اللقاء .

قالت بصوت حريرى : إلى اللقاء !

فى اليوم التالى قالت الأميرة سارة : عندى بعض اللوحات النادرة .. أعتقد أنها تحتاج إلى ترميم .. أريد رأيك وخبرتك.

- هل يمكن أن أراها ؟

- طبعا .. إنها فى قصر آخر .. سوف تذهب إليه مع وصيفتى اللبنانية شهيرة ولو لم يكن لدى ارتباطًا مع بعض أفراد الأسر العريقة من الخليج .. كنت ذهبت معكما .. شهيرة ماهرة .. وتعرف كل شئ . وأتمنى أن تحظى اللوحات باهتمامك فهى نادرة من كلاسيكيات القرن التاسع عشر فى فرنسا .

ودعتني في رقتها المذهلة ، تاركة خلفها عبيراً خاصًا ، ولم تنس أن تترك خلفها مظروفا منتفخا بأوراق مالية ..

شم أنفي رائحة شئ ما . ترى أين أصابع شهيرة مما يحدث الآن ؟

ليكن ما يكون . توحي إلى الشامية الحسناء أن نذهب إلى القصر بسيارتي وليس بسيارة القصر ، سيارة بلا تكييف ، وشمس ملتهبة . وجدت وجهها مغطى بغطاء شفاف ، ملامحها الجميلة تطل خلف شفافية سحرية ، حجاب يثير أكثر مما يحجب !

وانطلقت بنا سيارتي ، كأنما ازدادت شبابًا وتألقًا . وصلنا إلى قصر فخيم .. شهيرة تعالج أرقامًا الكترونية ، البوابة تفتح وتقفل .. وأبواب من الداخل تفتح وتقفل صمت يحيط بنا ، لا نأمة ، أدارت المكيفات ، ثمة أصوات .. زقزقة العصافير في حديقة القصر . وأخيرا رأيت مجموعة من اللوحات إلى جوار جدار .. تركتني أفحص اللوحات .. وجلست فوق مقعد .. أخرجت علبة سجائرها وأشعلت واحدة بقداحة ذهبية ..

- لوحات رائعة فعلاً ..

وضعت ساق على ساق . منظر بديع يطل على عيني . سمعتها تقول في رقة .

- هل تتذكر حديثك حول الحبشيات والعنبر !

- كنت أداعبك .

- آه ..

يبدو أنها رتبت كل الأمور ، ليس فى القصر سوانا .. قالت : تعال معى .. لا بأس من نظرة حول القصر .. غرف نوم رائعة الأثاث .. حمامات أحدث طراز .. أرض من المرمر . سلم خشبى حلزونى .. مكتبة من الخشب رائعة التخطيط بعرض الجدار .. وثريات ورسوم جدارية ، تهاويل من الزخارف .

- ماذا يعجبك من كل هذا ؟

- كل شئ .. وأنت ؟

اقتربت منى .. وجدت فى نفسى الشجاعة أن أضمها إلى صدرى . أى لوحة حية .

طيور جائعة بمناقير خشبية . منظر امرأة متفوقة ، تذكرك برسومات بوتتشللى العارية ، الهائجة الشعر ، العارية تمامًا والخارجة من صدفة خرافية وخلفها البحر ، امرأة متفوقة تعلو كل خيال ، تعلو على سكان القارات الخمس ، حزمة أعصاب أنثوية تضمنى ، جعلت منى قطا أليفًا ، أقول لنفسى ألا تشم ، ألاتحس ، ألا تبحر بكل كيانك فى سراديب الجنة ألم تفتح الأندلس الأخضر ، ما كل هذا البهاء !

تقول لى بعينيها الجريئتين : ماذا يهمك أيها العابر .. أنا لك الآن . سوف أجعلك تركض ، تصهل فى ساحة العشق .. لن تمل أبداً . سوف أسقيك كأسًا لن تظمأ بعدها أبداً . لم أكن سوى طفلا أمامها ، لم أكن أعرف كل هذا الجنون ، ولم أتصور كل هذا الجنون يختبئ وراء الهدوء والنعومة وقناع اللامبالاة .

انسابت موسيقى حالمة ، نتحاور بالقبلات ، تهمس أن انزع كل الثياب المسرحية ، وأطرح أحزانى وهمومى ! .. الصحراء تزدهر بأحواض الزهور وتهاويل الألوان . أشم رائحة المطر .. يا لروعة العالم ... تهاوت كل مخالب التردد والخوف ، وتلاشى ظل السيف وسخافة سيّاف الصحراء ، تهمس لى بعينيها ، برموشها ، بأنفها بشعرها المتهدل الغجرى ، بتفريعة الثديين ، بنبضة الدفء تحت الإبط .

- إننى قاومت وقاومت .. لكن ألف امرأة تهتف وتصرخ .. إنى احتاج هذا لا تظننى عاهرة .. لن أعتبرك عشيقا عابراً.

دمعة تترقرق .. أقبل عينيها .. العابر هو الخوف وليس أنا .. أقبل كفيها أرتمى برأسى فى صدرها .

السيارة تنتظرنا أمام القصر . أولج المفتاح .. أديره .. ترتج الآلة فى استجابة .

تقول لى : انتبه .. أنت تسوق كالمخدر .

- أنت أدرى بالسبب !

- أمامنا حياة . انتبه .. سيارة تندفع نحونا كالغول .

مرقت سيارة كالسهم .. يصيح بعض الشباب (الله أكبر .. يعيش النضال المسلح) !

وفى الوداع قالت : هذا يوم عمرى ..

- وهذا أجمل أيام عمرى .. إنه ميلادى .

- إذن سوف تأتى إلى رحلة جنيف .. سيكون لنا جولات رائعة .. البيئة هناك صالحة للحب والعشق ..

- الحب فى كل مكان .. حتى تحت ظلال السياف ! .. سوف أرتب ظروفى من أجل رحلة جنيف .

سافرنا إلى جنيف .. الصيف يختلف تمامًا هناك عن صيف الصحراء . النور والجمال .. الزهور والقصور وجو ارستقراطى وأجواء إنسانية ، ومعارض فنون . لاحظت بعض الوجوم على وجه الأميرة سارة ، لم أجسر على سؤالها عن سبب حزنها . قلت لنفسى لعلها أحزان من يمتلك كل شئ ! .. ولعلها أحزان تدفع إلى الانتحار مثلما يفعل بعض أهل السويد ! فسبحان مدبر الأحوال !

التقيت فى المساء مع (شهيرة) .. كانت متوردة ، بشوشة، ثرثارة .. كأنها عادت عشر سنوات إلى شرخ الشباب !

وأخرجت من الحقيبة شيكا بأسمى .. مبلغ كبير هدية من الأميرة سارة ..

قلت : ما هذا ؟

قالت شهيرة : الأميرة عندها نظر .. قالت لى إنها سعيدة لسعادتى .. وأن أوربا تحتاج النقود .

وفى حانة صغيرة .. تعاطينا بعض المشروبات .. إنها تفضل «الشيفز ريجال» .

وقالت : (على الاسكتش .. ما اسكوتش) فى صحتك .

- لماذا ألمح تعاسة على وجه الأميرة .

- يا سيدى .. طظ .

لاحظت أنها لا تريد الخوض فى سيرة الأميرة . رحنا نتابع الراقصين الشباب .

سألتنى شهيرة : لماذا لا نرقص ؟

- لا أجيد الرقص .

- الأمر بسيط أن تفعل مثلما يفعلون ..

الموسيقى ، العطور ، الأجسام الشابة اللينة ، الممشوقة ، عيون ، رموش ، أحجار كريمة ، روج ، أظافر ملونة .. كعوب عالية وكؤوس تقرع .. الموسيقى سريعة .. ترتعش الأجسام .. ثم هادئة ومنسجمة تدعو للألتصاق .. لعل الألتصاق هو الأفضل .. الأنثى والرجل والموسيقى والرقص .. ذلك هو الأفضل . صرنا جسداً واحداً .

- جسمك حار .

- وأنت جسمك لذيذ .

- ليس هنا يا مجنون .

- هيا بنا إلى الشقة .

- ليس الآن .. لنسهر .. ألا تحب الناس .. هذا الجو الحر .. ألا تريد أن تنسى كآبة الصحراء .

- معك حق .. الخير قادم .. أمامنا وقت يا قلبى .

شدتنى من يدى .. هيا نتصعلك فى المدينة .. نراقب الناس والأشجار ، ونجرى مثل الأطفال .. ونلعق الآيس كريم ونأكل الهمبورجر ونشرب البيبسى والبيرة المثلجة .

كان يسعدنا أن نشاهد اثنان يتبادلان القبلات تحت شجرة . ولفت نظرى أن شهيرة تعرف أين تسير ، وكأن جنيف وطنها الثانى .

الأميرة سارة مشغولة بأمور كثيرة .. علاقات عمل وشخصيات تتصل بها من الشرق ورجل أعمال يدير بعض شركاتها فى ألمانيا ولندن . وعزمت الأميرة السفر إلى لندن .. وأشارت شهيرة : لندن لها مذاق مختلف عن جنيف .

وأقلعت بنا الطائرة وهبطت فى مطار هيثرو . مدينة ضخمة ، ما أكثر العرب هنا ! ، لندن تفتح ذراعيها للقادمين ، الجيب العامر يفتح لك الأبواب .

قالت شهيرة باسمه : لندن صديقتى .. سوف أقودك إلى أماكن ساحرة . وربما يحلو لك أن تقيم هنا .

شربت صديقتى كثيراً .. صعدنا إلى غرفة الفندق . الفندق ارستقراطى الطابع .. أتخيل النفقات ، كانت شهيرة تقرأ أفكارى .. تقول : عندى شقة على مسافة ربع ساعة ، ولكن نحرق بعض النقود .. نشبع من ليل لندن .. جذبتنى إليها بشدة ، أصابع مصممة ، خلعت سترتها ، خلعت حذائها !

تجذبنى أكثر .. تقول بصوت فحيحى : تعال .. أريدك الليلة .

- أنا معك .

- أريدك أكثر وأكثر ..

- أسرفت فى الشراب .

- طظ .. أريد أن أنسى كل شئ .. عداك .

- أنا معك يا حبيبتى .

- تعال .. أقترب .. لماذا تخاف .. نحن فى لندن .. هل بلعت الصحراء في جوفك .. هنا كل واحد فى حالة .. أرأيت يا صديقى .. زرعوا فينا الخوف أولاد الأفاعى .. قبلتها ومسحت على شعرها .. رأيت أنها تتعلق بى .. أنظر فى عينها .. عذاب بلا حدود .. وضياع .. وعصبية .. ضحكات تخفى خلفها الكثير .

صعدنا إلى الغرفة المعطرة ، المؤثثة على أحسن ما يكون . الدفء .. التكييف المركزى . الأباجورة تلقى بضوء دافئ على فخذها .. شعرها .. يتوهج الأنف .. ترتعش الشفاه .

كان التليفزيون يعرض فيلما عن السحر .. أخرج الساحر عصاه المضيئة .. وراح يداعب بها وردة .. وأولج العصا فى عمق الوردة .. ضحكت صديقتى ..

- الرحمة .. يا متوحش !

اسمع صوت الدش المندفع .. تغنى شهيرة أغنية شامية .. أكتشف عذوبة صوتها . قلت لها : ماذا يفعل الماء .

- يفعل الأعاجيب يا صاحب الوجه المكشوف !

خرجت من الحمام متدثرة ببشكير .. أكثر نضارة ..

- ما رأيك ؟

- جمال أصلى .

- أحبك يا أسمر .

وأنا أقضم تفاحة .. سألتها .

- شهيرة .. من أنت ؟

- سؤال غريب لن أجيب عليه !

- لا أمزح .. أريد أن أعرف من أنت .. ليست علاقتنا عابرة (بعد الآن) .

- آه .. دخلت فى دهاليز .

- من أنت يا صديقتى ؟

- أنا شهيرة .. صديقتك .. رفيقة الكأس والسرير .. وعشيقة المطر والآيس كريم والبيبسى والهمبورجر ..

- شهيرة .. بالله عليك .

- أوه .. سوف تطير السعادة كالعصافير من فوق غصن تهزه الريح .

تمشط شعرها ... تدخل غرفة أخرى لتغير ثيابها وتضع بعض العطور .. لماذا تهرب من سؤالى .. ولماذا يحل فى عقلى مفتش لا يعرف اللياقة . الجواز أمامى .. البطاقة .. الأسم الرباعى .. ما الأسماء .. شهيرة أو خديجة الأسم ، الجنسية . الميلاد .. وسخف لا يلزمنى .. لقد أعطتنى نفسها .. فلماذا أنبش فى خلفية الصورة .

ودار الهمس فى الظلام .

- أشعر أن وراءك حكاية .

- كل إنسانة لها حكاية . فلانة ولدت وتعذبت وماتت فى ستين داهية !

أضأت الأباجورة . أخفت وجهها بكفيها . وهمست برجاء

- لو سمحت .. دعنا ننام .

قبلتها وغطيتها بملاءة خفيفة .. وأطفأت الأباجورة .. ورحت أضرب أخماسا فى أسداس .. إلى أن استرحت بالنوم .

وفى الصباح جلسنا إلى مائدة الطعام الخاصة بنا .. فوقها أباريق وفناجين .

تناولت شهيرة بيضة مسلوقة وفنجانا من الشاى .

قلت لها : أهذا هو الإفطار الانجليزى ؟

قالت : هذا صحيح ، ويكاد يكون موحداً هنا فى جميع الطبقات عبارة عن شريحة لحم خنزير (وهذا لا نأكله بالطبع) وبيضة واحدة كما ترى والزبد (ولكنه لا يناسب قوامى) . وفنجان من الشاى !

احتست قليلا من الشاى فى تلذذ وقالت : الذى يدهشك هو رغبة الانجليزى فى تثبيت عاداته .. نفس الطعام . بل نفس المعمار القديم والمبانى العتيقة ، ونفس الجلسة حول المدفأة . وشاى الساعة الخامسة المقدس !

انتهينا من شرب الشاى .. قالت هذا المساء سوف نقضيه سويا فى جولة حرة إلى حى مايفير MAYFAIR .. سوف أريك حى الوست اند . ونهضت قائلة : إذن نلتقى فى المساء .. لدى بعض المشاوير .. فماذا ستفعل فى النهار .. ولم تدعنى أفكر .. أقترح أن تزور المتحف البريطانى .

وفى المساء التقينا وذهبنا إلى حى مايفير ، وجذب انتباهى بائعات الهوى فى كل مكان ! .. دخلنا نادى ليلى .. الموسيقى والشراب .. ورقص إلى ما بعد منتصف الليل . وأموال تهدر فى بساطة .. كانت النسوة عاريات إلا من غلالات لا تستر شبراً من أجسادهن !

قالت شهيرة ضاحكة : مبسوط (يا أبو عنين زايغة) .

- معقول يا روحى ..

- لنجلس سوف نشاهد فرقة استعراضية ماجنة .. سوف تعجبك (يا بصباص) .

- من قال أننى أحب المجون فهو مفترى .

- بركاتك .. أنه مجون فى قالب فنى مدهش .

وبدأ الاستعراض .. والناس فى عجب . أشارت صديقتى شهيرة .

- هذا الشاب الهندى يغمز بعينيه فى وقاحة .

يغلى الدم فى عروقى .. أردت أن أنقض عليه وأعالجه بضربة قاضية ولكن شهيرة صاحت : ما هذا .. لا أحب العنف .. هل جئنا للشجار !

وانحنت إلى رقبتى تقبلها وهمست فى أذنى : إنه شاب لعبت برأسه الخمر ، والاستعراض مغرى ، ولو اعتديت عليه وهو مخمور كان القانون فى صفه ..

- ملعون أبو القانون .

- أوه .. تذكر أنه مسكين .. كل عشاق الجمال مساكين !

ومدت الكأس إلى شفتي .. وشاركتني نفس الكأس . وتغمز لي بعينها .. وقالت : ما رأيك نغير المناظر ..

قلت : نغير المكان حتى لا نرى هذا الهندي الحمار .. شئ يفوّر الدم !

ونحن نخرج من البوابة ، لفحتنا نسمة باردة ، منعشة ، شهيرة تسعل .. تضحك تهتز كمدينة صغيرة مرحة .

قالت وهي تتبختر في مشيتها : تعرف إن المكان الذي تركناه تواً ، هو أفضل مكان لعقد الصفقات بين العصابات .. إنه المكان المفضل لعمل مؤامرات !

رحت أضحك .. معلومات من بنك الخمور اللعينة . وتذكرت نظرات الهندي الوقحة .. هل شجعته شهيرة ! .. أوه ..

سألتني هل معك سلاح .. هنا أشرار في الطريق ..

- لماذا السلاح .. هل تخافين وأنا معك .

- أسد بن أسد !

ثم ضحكت ضحكة ماجنة . وأشارت إلى تاكسي . وانطلقت السيارة بنا مثل الريشة في خفتها واحتوتنا الشقة .. وراح الخدر يتسلل إلى عقلي .

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى ، راحت عيونى ترقب جمال الأثاث واللمسات الفنية .. شهيرة استيقظت قبلى وأخذت دشًا ساخنًا .. فى كسل أتطلع إلى الميدان ، لست محترفًا السكر والسهر حتى الفجر .. ورحت أستعيد الصور التى شاهدناها.. كازينوهات مرفهة، وبذخ.. وشوارع نظيفة .. حتى الشوارع التى تقودنا إلى حى «سوهو» .. وأستعيد هذا الكم الغريب من أصحاب البشرة السوداء ، زنوج كأننا فى أحراش أفريقيا ، بلطجية ، عصابات ، شغل بلطجية . سمعت شهيرة : تشرب قهوة سادة .

قلت بطريقة أتوماتيكية : أشرب قهوة سادة !

لكنها قدمت لى كأسًا من العصير .. ثم قدمت لى فنجانًا من القهوة السوداء .

رأيتها محمرة العينين وقد عقصت شعرها فى كعكة خلف الرأس ، ولم تضع مكياجا كانت ترتدى بيجاما حريرية تكشف عن جمال بدنها ، اشعلت سيجارتها .

رن «الهاتف» ترد شهيرة .. تطول المكالمة ، ملامحها جادة ، تتحدث بالعربية . لم أسألها مع من تتحدث .

لن أشك ، إن الشك يقتل الحب ، وحبها أقرب من حبل الوريد ..

ولن ينقر عصفور فى صدرى . من أنت بالنسبة لها .
وطاف العقل بسرعة .. صحراء ، وعيون حبشيات ، وقصر
الأميرة ، وطائرة . ومدن تطل بعد رحلة فى السحاب ،
وسهرات ورقص وحب وعربدة .. ولا شئ غير ضباب وصداع .
يا ولد لست شهوانيا .. فيك عقل يفكر .. ووجدان يطلب
الشئ الصحيح ! .. وينشق منى شخص لا مبالى .. يراقب
الكرة تتدحرج إلى أسفل !

وهاهي تطلب الأنفراد والخصوصية .. لديها مشواراً خاصًا
.. خرجت وتركت معى نسخة من مفتاح الشقة . وبعد ساعة
خرجت أتجول .. اشتريت بعض الصحف وجلست فى حديقة أقرأ
.. حوادث مزعجة .. صور فتيات الاستديو ، عصابات لسرقة
محلات الفراء !

قدمى تسير فوق أسفلت شارع بيزووتر Bays water ..
أشياء طريفة لا تنتهى ورحت أفكر فى تهافت الفتيات على
الزنوج ، زنوج فى كل مكان ، وفى البارات ، نساء من بولندا
والمجر وبنات من الصرب والبلغار .. جئن يعملن فى تجارة
الرقيق الأبيض ، وبينما أنا فى الطريق لمحت سيدة مصرية ،
كأننى أعرفها .. بكل تأكيد نفس الطريقة فى المشى ، ونفس
الملابس المحتشمة ... إنها البنت المحافظة جداً التى جاءت من
قاع المجتمع القاهرى لتدرس الفن .. فصدمتها أخلاقيات أهل

الفن ! إنهـا هى .. تميل إلى القصـر والنحـافـة ، نفس البـشـرة القمحيـة والشعـر الأسـود الفاحم وخصلة متدلية على الجبين .. كأنما كانت معى بالأمس .

توقفت أمامها .. وقلت بالعربية .

- صباح الخير زميلتى العزيزة .

- صباح الفل .. غير معقول ..

ومصافحة حارة لم تصل إلى العناق .. فـلا زالت شرقـية متحفظة .

- منذ متى وأنت فى لندن ؟

- منذ أسبوع !

- آه يا ربى .. ولم تفكر فى زيارة زميلة عمرك . أوه .. طبعًا معك بعض العذر لا تعـرف العنوان ... أخـرجت ورقة وقلما .. وكتبت له تليفون المنزل وتليفون المكتب وخريطة تصف البيت بالتفصيل .

- كيف حالك .. أذكر حياتك هنا فى سطور .

- تزوجت ، عندى ثلاثة أولاد ولد اسـمـه على اسـمك . والآخر اسـمه على اسم أبى وبنت على اسم حمـاتى (أم زوجى) .. وأعمل فى شركة دعاية .. نمتلك أكثر من نصفها .

أتذكر زمالتى القديمة ورحلاتنا معًا إلى المتاحف والمعارض، ونعمل الدراسات ، ولم يكن قلبى خاليا .. لا أدعى أننى كنت ذكيا .. لم أقدر عواطفها حق قدرها .. أتذكر مقابلتها فى الجامعة الأمريكية وقد رأت دبلة الزواج الذهبية فى أصابعى ، أتذكر كيف ظهر الامتعاض والألم على وجهها .. وكيف علقت تعليقا لم أفهمه . قالت :

لو كان الزواج هدفى .. كنت قد تزوجت منذ خمس سنوات ، لكننى لم أفكر فى هذا وكان سؤالى .. (ولماذا لم تتزوجى؟) .. لاشك أن الصمت كان الجواب ولا شك أيضًا إنه كان سؤالاً غبيا ، جارحًا ، قاسيًا .

لم أفكر فى أننى أجريت جراحة بدون مخدر ! وهاهى تطلق اسمى على ابنها ! .. يا ربى !

سألتنى : مع الأسرة أتيت ؟

- وحدى .. مع أصدقاء غير مصريين . وقد عملت خارج مصر عشر سنوات كاملة . وكأنه يا زمليتى كتبت علينا الغربة .

نظرت فى ساعة المعصم .. وقالت انتظر مكالمتك بعد الثامنة .. أرجوك ..

- سوف أفعل .

وانصرفت الزميلة ... أما السماء فكانت ساحة لعراك السحب ..

تذكرت زميلي الذي جاء حزينا .. فقد أراد خطبة زميلته ، وكان فلاحاً صريحًا لم يعرف اللف والدوران .. إنه يحب سامية عز الدين . ولكنها ترفضه لغير سبب محدد ! ويراقبها فيجد نظراتها وقلبها وكيانها متعلقا بى ! .. مشكلة لم أقصدها وحين جاء غاضبًا ورأى فى يدى خاتم الخطبة وعلم بارتباطى بفتاة من غير الوسط الفنى .. هدأ نفسيًا . وعاد إلى دنياه الهادئة . وها هو حزين لأن سامية تهرب من القاهرة لتعمل فى لندن ! وكأنه ينعى حظه فى الحياة .

وسرعان ما مرت الأيام ورأيت عزيز معوض وقد نسى غرامه الأول وتزوج من بدينة غبية تشتهى الإنجاب والمضاجعة وأطباق المحشى ! وتاه أيضا فى بلد بترولى واشتغل بالتجارة والمقاولات .. فى مصنع برأسمال مشترك خليجى مصرى . يصنّع باب وشباك .. ثم يتاجر فى كل شئ .. وللأمان اشترى أراضى قرب قريته .. ليكون من الوجهاء !

وإذا جاء ذكر سامية عز الدين .. ابتسم فى سخرية .. وهتف «الزمن دواء لكل الأمراض .. داء لكل شئ !» فأقول فى نفسى سبحان من يغير ولا يتغير .

راحت سامية تسألنى عن كل شئ فى مصر .. الجامعة .. كلية الفنون .. حديقة الأورمان .. وشجرة معينة كنا نجلس تحتها ! .. والشيخ محمد السنى ساعى القسم .. ودكتور عبد العظيم الأشول وكادت تجعلنى ألهث .. وتنبهت إلى موقفى فاعتذرت ..

وتكرر اللقاء فى موعد حددناه .. عرفتنى بزوجها .. رجل فى منتصف العمر ، أو يبدو كذلك ربما لنحافته .. ولحيته الصغيرة .. ونظارته المعدنية . رجل من الوسط الفنى ، يعمل فى مجال الدعاية والإعلان . يعرف كيف يقود فريقًا من الفتيات الجميلات ! .. ابنة سامية .. تتكلم القليل من العربية .. مثل كيف حالك .. ومع السلامة ! .. لكنها مصرية شكلاً . وكذلك الولدين ! أسرة متماسكة .

قضيت أمسية جميلة فى دفء عائلى .. الكعك والشاى والنكت المصرية والذكريات وتذكرنا كيف بكينا عبد الناصر ، وتحدثنا عن السياسة وأزمات الاقتصاد ، بل أزمة منطقة الشرق الأوسط .. وكأننا ندور فى دائرة بلا نهاية .. ولكن بلا تحيز ولا عصبية .

محظوظة سامية .. لم تبتعد عن الفن لحظة واحدة ... قالت سامية : نتمنى أن توافق على زيارتنا غداً .. زوجى لديه صحبة ممتازة .. ويريدك الانضمام إليهم .. أرجوك وافق ..

عدت إلى صديقتى الشامية ، تقابلنى فى حرارة ..

- أتمنى أن تكون لندن على هواك .

- ظروف مضحكة ، قابلت زميلتى فى الدراسة ، وقضيت وقتا مع أسرتها .. الدنيا صغيرة جداً .. يا شهيرة .. وكانت أمسية رائعة حقًا .

- أتخيل أنكم تحدثتم فى السياسة !

- بالضبط .. وفى كل شئ .

- اتصلت بنا الأميرة سارة .. وهى مشغولة .. وتهديك السلام . وتقول إذا أردت شيئا اتصل بها على هذا الرقم .. هذا المكتوب أمامك على الورقة .

كانت ملامح شهيرة تدل على بعض التعب ، مدت يدها وتناولت زجاجة مختومة من نوع شفيز ريجال وصبت كأسًا لها وآخر لى .. وأحضرت مكعبات الثلج والمقبلات . وتجرعت كأسها دفعةً واحدة ! .. تساءلت : ما الذى يزعجها ! ..

وداخلنى شعور بالتعاسة ؟ من أنا ؟ .. هل أعيش مجرد نبات العليق . وتقاذفت الخواطر مازلت لا أستمتع بالحياة العابرة . لقد أعجبتنى شهيرة .. ولكن من تكون ؟

خرجنا للتمشية فى الحدائق .. جلسنا فى ركن هادئ ، قلت لها دون مقدمات :

- شهيرة .. أتقبلينى زوجًا لك ؟

- أووه .. يا لك من مجنون .

- مجنون ؟ .. لأننى أعرض عليك رباطا مقدسًا .

- الحب هو الرباط المقدس .

- شهيرة ! .. أى امرأة تسعى للرباط المقدس .. والرجل هو جوّاب الآفاق .. أرى أننا نعكس الأدوار .. لقد أحببتك هذا اهم ما فى الأمر .. وأرى ..

- كفى .. أرجوك ..

اقتربت منى .. عانقتنى .. وهمست .. كل شئ فى وقته حلو ! .. وضحكت ضحكة عضلية .. واستطردت : هل زهدت فى حريتك ؟

- أجد السعادة معك ..

- وأنا أيضًا .. ولكنك تحب المفاجآت .. يا لك من مجنون .

ضغطت على يدى بامتنان .. وقالت أمامنا شهر كامل فى لندن .. دعنا نفكر بهدوء . الليلة نذهب لنستمتع بالليل اللندنى .. بالحضارة .

رحنا نتجول فى الشوارع والميادين ونتفرج على الحوانيت الراقية .. وقد حاولت أن ألقى بموضوع زواجى من شهيرة خلف عقلى .. ضمن عشرات بل مئات الأشياء المؤجلة ويستبد بى سؤال لماذا ؟ بين حين وآخر .

تقول شهيرة وهى تفتح ما بين ذراعيها : هذه لندن .. بلد التقاليد العريقة !

- مدينة المتناقضات .. عاصمة الأمبراطورية الضخمة لا تتمسك بتقاليد صارمة إلا فى أشياء تبدو سياحية ..

- لا أوافقك .. البرلمان .. الملكية .. المعارضة الحقيقية .. الديمقراطية .. حرية الصحافة .. تقاليد إنجليزية عريقة وليست سياحية .

- أراك ثاقبة النظر سياسيا .. ولكن ما قصدته الأخلاقيات هنا .

- الواجهة .. لا تعنى كل شئ . هذا المجون .. شئ طبيعى ! أليس هذا ما ترمى إليه .

- فعلاً .. بائعات الهوى أكثر من الهم على القلب .

- الحضارة فساد وثقافة ، نقود وتفوق . رحم الله الأمبراطورية الرومانية !

- مرة أخرى .. أتكلم مع شهيرة السياسية ! .. وهذا ما يعجبنى أيضًا .

- نعود للمواجهة .. يصدمك جو الحرية .. لأننا فى الشرق لا نتنفس .. ما تراه من علاقات الحب .. ليس كله دعارة .. هناك بنات عائلات .. طالبات فى الثانوى والجامعة ودراسات عليا وعاملات .. لهن باعًا فى المجون .. أما الدعارة فهى

مهنة قديمة .. بيع وشراء ! وموجودة فى كل الدنيا ومنذ أقدم العصور .. يقولون أنها أقدم مهنة فى التاريخ ! تنظر إلى من طرف خفى كأنما ترى رجع الصدى .

نسمة باردة ، أغصان الأشجار تتراقص في ليونة .. جو من الشاعرية فى حديقة واسعة الهايد بارك تغص بالعشاق ليلاً .. ثنائى فى كل مكان ..

قالت شهيرة : لماذا تسعى للكدر .. ونحن معًا فى لحظات سعيدة .. نتمتع معًا بالصحة والقوة .. لا تهديد ولا فزع ولا عوز .. وكل الناس حولنا فى سعادة !

قلت : كنت أظن أننى سأحصل على رد فورى ..

- أووه .. لا تكن عجولاً .

قالت الجملة الأخيرة بتلوين ومرح .. وأضافت : أمامنا وقت .. والآن يا أبخل من بخيل موليير .. استضفنى على عشاء فاخر .. أو كأس فى محل صغيرة .. مثل هذا ...

دخلنا مشرب .. الدفء اللذيذ .. وجميلات فى زى جميل يتقدمن للخدمة .. وعلى الوجوه ابتسامة حقيقية وليست مهنية! .. الموائد مليئة بالرواد .. شباب .. سيقان عارية ضحكات من القلوب ، مراهقات فاتنات ، كاسيات عاريات - (كما يقول فضيلة الشيخ عندنا) - التدخين ، وشراب الجن بالليمون . وفى العودة رأيت شهيرة تمسك برأسها ..

- أهو من أثر الشرب ؟

- ربما .. ربنا يلطف .

صعدت السلالم بصعوبة .. كادت تقع .. حملتها إلى السرير ..

- ماذا تحسين ؟ قالت : دوار في رأسي .. هذا الألم اللعين يعاودني .. حاولت أن تغفو .. اتصلت بالطبيب .. طرح عدة أسئلة على شهيرة وقال في برود : غداً نعمل تحاليل .

حاولت شهيرة النوم .. الحزن يهيمن على غرفتها .. لا تريد الكلام .. الدموع تتجمد في عينيها .

أمسكت بكفها في يدي .. ولثمته ..

- شهيرة .. أنا معك .. لا تخافي .. سوف نطمئن غداً بإذن الله .. سوف تطردين المخاوف غداً ..

قالت شهيرة : لم أحب أن أكون في هذا الوضع .

- أنت مثل الفل .

ابتسمت بمرارة : الفل .. الله يسترك !

وخطر لي أن أسألها : هل كانت عندك بوادر قديمة عن المرض .

- نعم .. ولأنني أكره المرض والدواء والدكاتره .. إنه مثلث الكراهية بالنسبة لي .. فقد تجاهلت الأمر !

وحين انفردت بالطبيب سألني من أنا بالنسبة للمريضة .

قلت له : خطيبها .

رفع حاجبه وقال : ليتها جاءت مبكراً .. المرض فى مراحله الأخيرة .. يعقد المسألة لنا ..

- وما العمل ؟

- جراحة . صعبة جداً ومكلفة .

- والأمل فى الشفاء .

مط شفتيه . وقال بصوت بارد : نعمل العملية وندع الطبيعة تمارس عملها بعد ذلك . تأذيت من صراحة الطبيب ، إنه لا يذكر مشيئة الله .. وهو العلى القدير .. الشافى ، المعافى .

وقال الدكتور لابد من موافقة المريضة كتابيًا .

وضعت شهيرة رأسها بين كفيها وانخرطت فى نشيج . وقبلت يدها أن توافق على العملية . وأننى سأكون إلى جوارها .. وأخيراً وافقت بعد طول تردد .

قال الدكتور : اليوم نأخذ عينة للفحص .. وغداً نقرر .

وحاولت أن أسرى عنها ، وأعمل لها بهلوانا .. كى تنسى .. إلى أن نامت .. فنمت على كرسى بجوار السرير .

ودخلت المستشفى .. ولم أتركها إلا بعد أن تاهت فى دنيا البنج ..

قال الطبيب : تشربون المنبهات وتعذبوننا فى البنج .. ولاحظ جمودى .. ربت على كتفى مازحًا .. أنت تعيد لى

الثقة .. أن العالم ما زال يعيش قصصًا رومانسية ! كنت أظنها في الأفلام والروايات .

تبدو ممرات المستشفى طويلة كجدل ممل ، ورائحة الأدوية ومشاهد الممرضات ، الكل يؤدي واجبه في صمت وحرفية .. حتى منظر الحديقة حول المستشفى .. كأنه لوحة كرتونية .. الوقت يمتد .. الدقائق تصبح ساعات . والساعات تتحول إلى جبال تجثم على أنفاسي وصدري ، تنصحني (السستر) بالخلود إلى الراحة ، وإنه يمكنني أن أتابع الأمر بالتليفون . رأتني أهز رأسي كالأبلة فأوضحت بأنه لا نفع من التخشب على الكرسي في قاعات الانتظار .. وسمحوا لي - بعد تردد منهم - أن أشاهدها من خلف الزجاج .. مسجاة على الفراش لا تدري من أمر نفسها شيئًا . وثمة خراطيم تمتد إلى أجزاء كثيرة من جسمها ، وتتصل بأجهزة معقدة إلى جوارها .

أهذه المرأة كانت معي .. تضحك وتمرح وترقص وتغني وتشرب وتسخر من كل شئ ؟ سبحان من يغير ولا يتغير .

وامتثلت لمشورة الأطباء وذهبت إلى الشقة .. فلا نوم ولا طعام .. الظلال الرمادية في كل مكان .

اتصلت الأميرة سارة .. وعرفت الأخبار بالتفصيل . ولم أتعجب حين زرت المستشفى فوجدت الزهور ، وإن معاملة المرضات أصبحت غاية في الأناقة والرقة - والحق يقال المريض

عندهم محترم ويلاقى رعاية فائقة - ولا أدرى لماذا ربطت الرعاية الفائقة بالشيكات المدفوعة لإدارة المستشفى تحت حسابنا !

قال الدكتور : لا أخفى عليك .. العملية دقيقة جداً .. وأمامنا وقتا لتكون تحت الملاحظة ، والتوفيق للآن على أحسن ما يكون .

قلت له فور سماعى هذا : أشكرك يا دكتور .. هذا أول كلام جميل أسمعه منك كلام يبل الريق ..

وانتحيت جانبا أصلى لله شاكراً .. وأدعو لشهيرة بالشفاء التام . وانفتحت شهيتى .. فتناولت طعامى بعد عشرين ساعة من نسيان الجوع . وبعد الطعام رأيتنى استرخى لمدة ساعتين كاملتين .

وحين أفاقت كنت أجلس إلى جوارها أمسك بكفها الصغيرة .. وفتحت عيناها .. أفاقت ورأيت ابتسامة شاحبة تنبض على شفتيها .

- الحمد لله ..

- عذبتك معى .

انحنيت أقبلها فى جبينها ... رأيت دمعة فى عينيها ...

وجاءت الممرضة ، جميلة ، مرحة فى غير ما صخب ..

قياس النبض والضغط وأشياء روتينية . ومر الوقت وأنا أتابعها ببصرى .

وسمح الطبيب لشهيرة بالحركة والطعام ، بل والتجول فى حديقة المستشفى .

وعاد اللون الوردى إلى مكانه فوق خديها ، وعاد البريق فى العينين .

وكنت غاية فى السعادة ، عادت الحسناء إلى سيرتها الأولى ، أو بعض سيرتها ، سامقة القوام ، تحن إلى العريدة ، حلوة يجرى فى قوامها ماء الحياة ، تتهادى فى شئ من التيه وبعض الدلال الممزوج بآثار المرض ، وزادها المرض رشاقة فكأنها غصن رشيق يحركه النسيم .

وقالت شهيرة كلامًا كأنه أغنية شعرية .. قالت لها الممرضة : سيدتى أنت محظوظة .. لأنك محبوبة .. من رجل يعبدك بكل هذا الإخلاص .. وسيدة ظلت ترعاك من بعيد وتغدق علينا فى كرم لم نعرفه من قبل .

وأمسكت بيدى : أشكرك على كل ما فعلت من أجلى ، فلو علمت كل شئ .. لعرفت أننى لا أستحق عطفك !

– ماذا تقولين .. أهذا كلام تتفوهين به عن نفسك .. أنت لا تعرفين منزلتك فى قلبى .. كم كانت الدنيا خواء بدونك .

- صديقى الحبيب .. الجراحة صعبة ولكن لابد منها .. وللأسف تحتاج أنت أيضًا لجراحة صعبة .. لتتخلص من ورم وهمى اسمه شهيرة .

- ماذا ؟

- أنت عرضت الزواج ولم أعطك جوابا .. وجاء الوقت لتعرف من أنا .. ولكن اسمح لى أن أدخن سيجارتى .. وأشرب كأسى .. وسحقا الليلة لكل كلمات الأطباء ونصائح الحكماء .

دعنى أحكى لك من أنا .. وبعدها يحلها المولى .

فى لبنان .. كنا نعيش فى هدوء ودعة ، أو هكذا يبدو القناع أمام كل العالم .. وجاء سرطان الحرب الأهلية ، فاحترق القناع وظهر الوجه المتخلف القبيح . واكتشف الحصيف منا أننا مجرد كانتون .. وأن ساحتنا هى ساحة أشبه بالكازينو وصالات القمار ، وأن الثقافات الوافدة إلينا مجرد حلية .

أخذت نفسا من السيجارة .. وراحت تحكى ، لا يمكن لمثلى أن ينسى ما حدث .. كيف ترى طفولة تتمزق بلا جريرة . ذات يوم أثناء الحرب رأيت طفلاً صغيراً مرميًا فى الطريق الدم ينزف منه ، حملته إلى أقرب مستشفى .. كشف عليه الطبيب .. وسألنى هل أنا أمه قلت له : لا .. إنما وجدته بعد القصف المروع .. ولعل أمه ماتت فى مكان ما . وعلمت أن الرصاصة

قطعت الحبل الشوكى للطفل .. فإذا عاش .. سيكون مشلولاً بقية عمره !

أصبح الموت فى كل مكان .. فى بلد كانت تشتهر بالجمال والسياحة .. كنا سويسرا الشرق .

- وقبل الحرب ماذا كنت تعملين ؟

- مأساة أخرى .. عاملة فى مصنع أحذية ، وبائعة فى محل لبيع الحلويات وبعد العمل يريد صاحب العمل أن يختار الأجمل لوظائف خاصة جداً وبأجر مغر .

وقالت لى صاحبة شقق مفروشة تعالى عندى وأعطيك عشرة أضعاف أجرك وكنت فى حاجة إلى النقود .. فالأزمات العائلية معظمها أزمات مادية . وعملت مديرة لشقق مفروشة .. وهى تعبير مهذب لخادمة .. وشفرة العمل .. السرية والطاعة والأغراء .. زبائننا من الشرق والغرب .. السائح الشرقى الكسول .. تنتهى زيارته إلى الشقة ويريد الجنس وفى البداية يدفعون جيداً .. أولاد أبالسة ! ثم يمسكون أيديهم بعد الامتلاك عدة مرات .

- وبداية الطريق خطوة .

- برافو . هذا ما كان .. دفعوا وتم لهم ما أرادوا .. ولكن البداية كانت أسبق من هذا بكثير .

- لماذا تقولين هذا الآن .

- مكاشفة .. كنت تقول من أنت .. هذا جزء من كل .. ما خفى كان أعظم .

- واستمتعت بالعمل ..

- أقول الحق .. عرفت سفالة البشر .. الكرم الشرقى مع الجنس .. ولكن جاء إلينا خواجة يريد تدليك البروستاتا .. أحضرت له البواب يتصرف معه .. رفضه البواب متقززاً .. أحضرت له بنتا تعمل عندى فى الشقق المفروشة .. كانت تتركه لتتقيأ ... ثم تعود لتمارس تنظيف الماسورة القذرة .

- وما الحاجة إلى تلبية الرغبات الشاذة !

- اتقزز من الإجابة .. حين يأتى رجل - أو شيطان - ومعه حقيبة مليئة بالدولارات .. فإنه يفعل بنا وبنفسه ما يشاء .. ودائما معهم (المصارى) .

أتعرف كم دفع للفتاة التى تدلكه فى ليلة واحدة خمسمائة دولار ... بالإضافة إلى ما تأخذه بمهارتها من هنا وهناك .. وبرضاء العميل !

- أعوذ بالله .. هذه محنة !

رفعت الكأس .. وصبته فى جوفها .. وظهرت على وجهها تعبيرات ساخرة .

وهناك من جاء يطلب ضربة بالكرباج ويقبل الأحذية .. وكلما أمعنت فى تعذيبه استراح .. وتحول إلى ملاك .. مضرج بالدماء !

وهناك من يأتى بثلاثة فتيات دفعة واحدة .. وهو عنين !
.. يضحكن عليه طول الليل .. ولكنه يدفع بسخاء ويدعى الفحولة ! .. وإنه الفاتح الأعظم !

اسمع ما تقول شهيرة .. وأكاد أجن .. هذا الملاك الطاهر .. هذا الشيطان ! .. الملاك الشيطان ! .. أم أنها تكذب على .. وتقوم بعملية جراحية لى ..

ولكننى لم أفعل معها شيئا تنكره .. لماذا هذا التوقيت لنشر الغسيل القذر !

- لماذا تحدق فى هكذا .. ألا تصدق ما أقول .. بل هناك فى جراب الحاوى الكثير .. فقط استمع واندهش .. لأنك شخص حالم لا تعرف عالمنا المجنون !

تقول شهيرة : مهما حدثتك عن الحرب .. وما أحدثته من خراب ودمار فى بيوتنا ونفوسنا .. لن أرتاح لما أقول ولن يستوعب أحد ما حدث .

تصب الخمر فى الكأس .. وتشرب فى مرارة .. وتنسحب إلى أيام الحريق .

ويأتى صوتها عبر رحلة العذاب ، تتذكر أيام التمريض والحرائق والقلق المتجدد وحالات السرقة والاغتصاب ، والنيران التى تأكل الوجوه والأطراف ، وحالات البتر والنزيف وقلة الدواء والماء . وتجاهل بعض الشباب لكل شئ فيحدث الضحك من أى شئ وعلى كل شئ . الشوارع صيحات ممتدة .

والأشجار مراكز استطلاع والجدران تقف مثل ديكورات محترقة في فيلم رديئ . وطيور جارحة تحوم على ضالتها ومناقير حادة تنهش لحم الأطفال والنساء . وعيون تحدق في البحر تنتظر الفرج الآتى من الغرب !

رأيت جريحًا يرتدى الكاكى .. يهمس بصوت مخنوق «سوف أدافع عن أسرتى حتى النفس الأخير» والجرح النافذ فى معدته ورأسه لم تمهله تكملة ما يريد قوله .

وفى لحظات الهدوء القليلة كان بعض الشباب يلعبون لعبة الروليت الروسية !

تنهض شهيرة .. تفتح النافذة .. الهواء يمرق إلى الداخل .. المصابيح ملقاة على الواجهات تتألق فى ارتعاش . لا أرى فى السماء قمراً .

سألتنى : لم تقل لى شيئا عن مغامراتك النسائية .

- ليس لى مغامرات .. مجرد معارف سطحية .

- لم ترتكب جريمة تستحق عليها حكم الإعدام .

- أعوذ بالله . ماذا تقولين !

- أنا محظوظة .. فعلت كل شئ .. فى طفولتى دفعت جارة من فوق السطح .. وسقطت ميتة ! .. وأيام الحرب .. قتلت . ومارست السبع موبقات ! وقالت ساخرة : يخيل إلىّ أن الموبقات أكثر من عدد شعر الرأس !

تضغط سيجارتها بعنف فى صينية صغيرة ! (أنت لا تعرف شيئا) قالت فى تحد غير مبرر .. كأنها فى معركة معى .. تنظر إلى المبانى العالية المهيمنة على الليل والأرواح الشاردة ..

وسألتنى شهيرة ، لماذا تريد أن تتزوج .

- لأننى أحبك .

- هناك من يحبون ولا يتزوجون !

- ولأننى أحب الحياة . أريد حياة شرعية وأطفال منك .

- هنا نفترق . أنا غير مؤمنة بالحياة ، ولا أتمنى أن يأتى للدنيا أطفالا يتعذبون مثلى ألم تسمع عن (النرفانا) .. والخلاص الذى قال به المعرى !

أشعلت سيجارة جديدة .. وقالت بعد تنهد .

- أنت لا تعرف أى شئ .. فلماذا ترتبط بامرأة جربت القتل والدم والجريمة . وجربت الموت وعاشرت من العشاق ما يذهلك ؟

رن جرس الهاتف ..

رفعت شهيرة السماعة .. وقالت باهتمام .. سوف أحضر .. مسافة الطريق ..

وقالت لى بعد أن أقفلت السماعة : سوف أسافر فى رحلة قصيرة .. ضرورى .. وربما نكمل حديثنا بعد العودة .

- كم تغيبين ؟

- لا أدرى .. الأمور ليست بيدى . ربما ليلة .. أو أسبوع .. سوف أترك فى يدك كل شئ .. ما دمت تريدنى .. لابد أن تعرف عنى بعض الأشياء الهامة .

- أهى الأميرة تطلبك .

- أرجوك .. لا تسأل كثيراً .. لا وقت لدى الآن .. كما ترى !

وقبلتنى فى فمى وسافرت ومعها حقيبة صغيرة !

جلست فى الشقة وحدى .. كل شئ يشير إلى شهيرة .. العطر .. الأحذية الملونة .. السرير الفوضوى .. وجدت مجموعة من الأوراق فى شكل مجلد .. وكأن شهيرة أرادت أن أكتشف شيئًا بنفسى .. إنها لا تنسى شيئًا .. ولماذا تترك مذكراتها فى الحقيبة مفتوحة .. بل لماذا تحملها إلى هنا ! وتردد صوتها فى أذنى (لابد أن تعرف عنى بعض الأشياء الهامة) جلست أقرأ .. فى غير انتظام .. يدفعنى حب الاستطلاع وغريزة التطلع إلى الآخر !

«الشمس جميلة .. الألوان تتألق ، والأطفال زينة الحياة .. والباعة يخلقون الدنيا كل صباح .. من يبتاع هذا الضوء وهذا البهاء !» .

القناع الجميل يشتعل .. وفتاة فى ريعان الشباب يحاصرها كهنة الظلام .. تجرى هنا وهناك .. فى دهاليز رمادية .. تحت أسقف حجرية عتيقة .. الدخان فى العيون والأقنعة المرعبة فى كل زاوية .. لا تدرى أين تهرب .. كلما شقت طريقًا واجهت قناعًا مرعبًا يعلوه شارة الموت .. تطل الجماجم . الموتى والسفلة يهتكون عرض الفتاة !

مزقوا ثياب الحسناء .. غرسوا أسلحتهم الحادة فى لحمها .. تتأوه في لذة .. تدمن العذاب .. ترتخي وتنام على فجيعة الغد !

* * *

يتسرب الضوء من طاقة بعيدة .. تسمع صرخات .. ضاجعوا زميلة لها ثم قذفوا بها من أعلى العمارة . وخيوط الأمل باهتة ! .. ظلت الأمعاء تتلوى من الألم .

يتعلق القلب بخيوط العنكبوت ! .. ويتردد على مسمعها صرخات الفتاة وهى تهوى من أعلى .. تتهشم على الأسفلت !

جاء الملاك .. رحيما .

وبعد قبلة ناعمة .. راح يفرك سيجارته فى وردة بنفسجية

ويطير الملاك .. فى دخان القنابل .

وجدت زجاج النافذة مكسورا .. يعربد فيه ريح الجنون .

* * *

لم أفهم الكلمات .. أهى تجارب دونتها (شهيرة) .. أم ماذا ؟ .. أقلب الصفحات (لن أنس ما حييت ذلك الطفل

الجميل .. المرمى على جانب الطريق .. ينزف .. قميصه ملوثاً بالدم .. يتنفس بصعوبة .. إلى أقرب مستشفى ذهبت به .. سألنى الطبيب المجهد :

- هل أنت أمه ؟

- لا .. وجدته هكذا بعد القصف .

- إذا عاش .. فسوف يعيش مشلولاً .. قطعت رصاصة حبله الشوكى !) .

(كان يدفن رأسه فى صدرى .. ويذهب إلى أسفل .. أسفل .

يأكل ما يقابله ..

يجعلنى أجن .

ماذا أفعل مع هذا المجنون .

لا أملك رده ..

مثلما تهرب الريح .. يأتى ويذهب ..

بعد رحلة عبث رائعة) .

(فى كل مرة أقول .. لن أجعل نفسى دمية فى أصابعه .

لكنه يأتى .. ويقضم الرغيف الساخن .

دون أدنى مقاومة .

ولا أفتعل سوى ابتسامة بلهاء !) .

(السرير شاهدا .. وزاوية الغرفة الحجرية .

ومربع الأبهة والتبغ وكؤوس الظمأ) .

«الجليد يشتعل ، الشواطئ تختبئ ، والبارات مهجورة ، وأموال طائلة هربت إلى خارج البلاد .. جاء المطر الأسود . ودفنت الأحلام .. ولم يبق إلا العطش» .

وقلبت الصفحات ..

«تطوعت كممرضة ، وتعاملت مع الجراح والآهات والضعف البشرى . واكتسبت مهارات واسعة بفضل التدريب اليومى الإجبارى من ناحية والرغبة فى مساعدة الآخرين من ناحية أخرى . كان القصف المستمر معناه المزيد من الدماء والصراخ والدموع وحشرجة الموت ! كان الحوار بين الزعماء والميلشيات بالرصاص والمدافع والصواريخ !

تطالعك المدينة بوجهها المجروح ، طلقات الرصاص حفرت الأسماء ومضت ، أو استقرت فى عظام الموتى . الأطفال مازالوا يلعبون فى الحارات وسط مياه ملوثة مياه المجارى والشرب ، ومازالوا يضحكون ! يجرون مع الجرذان وسط القصف إلى المخابئ ، ويظهرون مع الهدنة المزيفة .. يلعبون وسط الرطوبة . ويحتفلون بالمطر وأكوام القمامة» .

(اليوم تعرضت بيروت لكمية هائلة من النيران . توجهت إلى بيتنا .. وجدت أكواما من التراب والحجارة .. بكيب حتى تقرحت عينى ! وتعرضت المستشفى أيضًا للقصف ! ومات عدد من المرضين والأطباء ! فارتاحوا حين رحلوا !) .

* * *

(أدمنت كل وسائل النسيان .. وتدمير العقل .. ورحت أراقب الديدان فى الحفر وأسمع المواساة من أفواه لا تعى . وأتجرع المرارة حتى أعمق أعماقى !) .

* * *

(جاء أحدهم .. ومد يده يقطع رأسى وشرايينى بآلة جهنمية .

يفرغ ما كان .. كل الكتب والأشعار .. وحكمة المتنبى وزهير .

ليدلق فى جوفى .

ضمائر الظلمة ومكعبات الثلج !) .

* * *

(والشئ المدهش حقًا هو قدرتنا على النوم .. وإغماض الجفن كأن شيئا لم يكن !) .

«مكتوب علىّ أن أكون امرأة مجربة للموت والعشق المدمى . وأن أحيا كى أحكى أيام الرعب» .

«أرهقنى العمل .. فسقطت مريضة . اعتنت بى زميلتى الجميلة ، وكانت تحضر لى الحليب الطازج وهذا شئ نادر جداً . وتحكم حولى الغطاء وتقبل يدى فى حنان .. أمسك دموعى بصعوبة قبل أن أنام» .

* * *

«نشأت بينى وبين أحد الأطباء صداقة فى جو الموت ! رحنا نتقاسم الطعام والسجائر والفراش» .

«وكانت الوردة البنفسجية ترتعش

والأصابع تداعب قلبها .. وتهب رياح ساخنة

وغيوم .. أغمض العين فى الظلام

فأرى القمر .. وأحلم بالعصافير والحمام يحرث السماء .

وأجسامنا الفضية تغتسل بالعرق .. وتتلاشى المسافات العارية .

وتتداعى الأشياء المنهوكة .. بعد رحلة بحث عن الذات .

ولا أمانع أن تفتح الأصابع الغريبة الطابع المقفول .

على سر قديم» .

«فقدت شهيتى بسبب الكوارث اليومية ، وبسبب اليأس وابتعاد رؤية الحلول !

وأثير حولنا جدل مرعب عن حالات التيفوئيد ، ولا حيلة فى وجود مياه غير نظيفة .

رحنا نحاول تجميع ماء المطر فى أكياس نايلون .

وعندما يشح الماء .. يتآكل كل شئ .. وتشعر بقذارة الجسم والكره الشديد للملح والعرق وكل الثقوب اللعينة ! وتشعر بالقمل يحتفل بمباراة فى فروة الرأس وشعر العانة !

كل يوم يمر . يتكاثف الجنون .. لكننا كنا نفرح بأشياء تافهة جداً .. كسرة خبز .. زجاجة عطر ! ترى بريقا فى العين حين يصلك هدية متواضعة ! دستة الشموع .. ثروة ! أو حتى علبة كبريت .. أو حذاء مطاطى .. أو بطارية .. أو بطانية ! ومن أعظم الهدايا معجون الأسنان ! أو قطعة صابون لغسل الوجه ! وكان نقص الطعام مشكلة طاغية .. تهديد بالجوع ! .. وشعور بالإذلال .. والقهر والظلم .

لست متصوفة .. وأكره الزهد والزاهدين .. فالخبث كله فى نكران نعمة الله . ولا أدعى الطهارة .. فإذا كنت ملوثة .. فلأننى أستحم فى بحر ملوث ! والله يعاقبنا بالسلم وبالحرب معًا .

* * *

«هذا البيت المعتم .. البيت الصغير فى جسدى .
يطلب الجزية .. يمد لسانه من زاوية وردية .
دافئة .. يبتلع قطرات الصمغ الصفراء المبيضة .
ولا أفكر ، بين قوسين من الريح فى أى شئ آخر !»

* * *

«إن الأقبية الرمادية .. تحتضن الماضى الغامض .
وأنا فى الحزن الدفين .. أنظر للعالم .. عبر ضوئى» .

* * *

توقفت قليلاً عن قراءة المذكرات - المكتوبة فى بعض الفقرات بطريقة ملغزة .

وتداعى إلى ذهنى حوارى مع شهيرة ذات أمسية ونحن فى الخليج !

سألتها : كيف يتخلى الناس بسهولة عن مواهبهم وأرواحهم ؟

قالت : للأسف ! يحدث هذا كثيراً .. خلق الله الناس بصورة ممتازة .. وباعوا أنفسهم للشيطان من أجل القليل .. القليل جداً .. والذى لا يبق منه شئ !

نحن نبيع أنفسنا كثيراً من أجل العيش ! قاتل الله المادة .

- هل تخافين من المستقبل ؟

- وهل هناك مستقبل ؟ !

واستطردت شهيرة : إنما أشعر بتقزز حين أرى المواهب تراق وتهدر تحت أقدام الجهل .. وعقول جبارة تسخّر إمكاناتها لتكريس جيوش الظلام !

وقديما قالوا .. قلوب الناس مع على .. وسيوفهم مع معاوية !

وتذكرت وقتها صديقتى المصرية سامية .. تكاد الكلمات تتطابق ..

قالت سامية : مرض أبى دفعنى لفعل أى شئ . أبيع نفسى حتى أوفر ثمن عملية جراحية على يد جراح .. يظهر فى التليفزيون من المحسنين ! ويحتل مكانه مرموقة فى أعلى المجالس المختصصة !

إن كلمة الاشتراكية أكذوبة .. حين يقع المرء ولا يجد ثمن العلاج .. وحين يفكر فى ثمن الدفن .. فهذه كارثة .. المواطن مكرم فى كل الدنيا .. ماعدا هذه البلاد !

- لا تكونى قاسية الأحكام .. اذكرى رحمة الله ..

- (وإذا مرضت فهو يشفين) .. صدق الله العظيم .. ولكننا نأخذ بالأسباب .. أين العدالة .. مستشفيات الحكومة مقابر جماعية .. مجازر تدريب للطلبة ! .. لقد رأيت الهول كل يوم ! العلاج الحقيقى لمن يدفع .. لمن يملك . أصحاب القدرة .. هم أصحاب كل شئ . ولا يقتات الناس من الخطب والحماس المزيف !

لقد مات أبى من الفقر !

ورأيت فى عينها دموعًا غالية .. سخية .

سامية .. هل تغيرت !.

رن الهاتف .. سمعت صوت سامية يسأل فى حرارة تداعبنى :

– أين أنت ؟ لقد وصفت لك المنزل ومعك رقم الهاتف .. لماذا لم نسمع صوتك .. أرجوك .. لا تعتذر .. تعال .. دكتور زهدى وشلة من الأصدقاء هنا .. ألا ترى أن أجمل صحبة من الأحباب .. قطعة من مصر .. احضر .. نحن فى الانتظار .. أقفلت دفتر المذكرات «الأجندة الحمراء» لشهيرة .. وارتديت ملابسي وأخذت وجهتى إلى بيت سامية .. لعلى أخرج إلى جو ينعشنى ! ويذهب عنى شبح الصور الرمادية !

وقبل السابعة مساء كنت أشق طريقى تجاه منزل سامية .. وعينى تراقب الجدران العالية والمحلات ومصباح يطل فى انحناء جميل .. قطعت ظله إلى مساحات مبللة فى الأرض .. الجو منعش . وأمام باب الشقة قرأت لافتة بالحروف اللاتينية (الدكتور زهدى) طرقت الباب .. انفتح عن وجه بشوش .. الدكتور زهدى يصافحنى بحرارة .. ويفسح الطريق إلى مجموعة من الضيوف .. تتوسطهم سامية التى رحبت بى .. وراحت تقدمنى إلى الأصدقاء .

ويتوسط الحجرة منضدة متوسطة عليها أطباق الشاى والحلوى ومعلبات العصير . ودار حوار عن الجو والتاريخ وذُكرت أسماء تشمبرلين وهتلر وتشرشل والحرب العالمية والديمقراطية وأهمية الرأى العام وانتصار بريطانيا وهجرة المصريين والتأقلم مع الثقافات المختلفة .

وجذب انتباهى فتاة .. اسمها (نداء) .. قالت عنها سامية إنها فتاة من أسرة طيبة ، تجيد عدة لغات ، تدرس وتعمل وكأنها تشجعنى للزواج ! .. كنت أسمع الكلمات ولم أتخلص تماما من صور (الأجندة الحمراء) وكلمات شهيرة ! .. ولماذا خرجت بعد مكالمة .. ولماذا تركت الأجندة بكل ما فيها من أسرار ؟ إنها تريد أن أعرف بعض الأشياء .. بعد حصارى لها .. وطلبى زواجها !

عدت إلى المجموعة .. أراقب الوجوه الباسمة وآثار النعمة .. والسيقان الجميلة والعيون الضاحكة .. أو القلقة ! وضحكات تنطلق وحكايات جانبية والعودة لموضوع الديمقراطية الغائبة عن بلادنا والإعجاب بالغرب والانبهار به فى بعض جوانبه .

قالت نداء : هل أنت سعيد بالحياة فى الخليج العربى .

قلت : السعادة نسبية . إنها حياة عمل ليس إلا .. وأنت ؟

قالت نداء : أفكر في مصر دائمًا .. رغم توفير كل شئ هنا . لقد اكتشفت أننى أحب بلدى بجنون .. رغم كل مظاهر الفرق .. يكفى سخافة الروتين والبيروقراطية .. ولكننى أنسى كل شئ حين التقى بزملاء الدراسة وبنات الجيران .. والنكتة المصرية .. ومشكلات تعيدك إلى الحياة !

وفى نهاية الجلسة .. وجدتنى أصافح الجميع .. وأخرج مع (نداء) فى الشارع .. ونفترق بعد الوعد على الاتصال .

عدت إلى سكنى .. رائحة شهيرة الغائبة . أنا والأشياء .. أسمع نقرات المطر على زجاج النافذة .. تطلعت من الزجاج إلى أسفلت الشارع ، حبات المطر تنزل بشدة تفور وتتلاشى بسرعة . ينعكس ضوء مضطرب لسيارات عابرة وظل فوانيس الفنادق والمنازل .. السابلة يمرون تحت مظلاتهم . لوحة تأثيرية مشغولة بنسيج المطر .

وتداعت الصور والأصوات إلى ذهنى .. أغانى سيد درويش .. والبحر .. وعيون نساء .. تسحرك .. مثل عيون الأميرة الرقيقة .. وبسمتها الطيبة ، وأصابع ناعمة وأظافر ناعمة .. وشفاه لامعة وشوارع لامعة فى مياه المطر !

وعابر سبيل إلى بلاد الشمس .. يبحث عن الرمال والمال .. ويحلم باللاشئ .. وينسى كل شئ .. فلا المال يأتى

بالرغبات .. وقلب يناضل الغربة بسيف الإحساس . يناضل السور العالى بين الأميرة ونظراتها التى تنقلنى إلى السماء السابعة . ويناضل الشياطين العابثة ومزارع الظنون فى وادى الظلمة حين تنحنى شهيرة فوقى وأرى فى عينها نظرات غريبة.

- من أين تأتى هذه النظرة يا شهيرة ؟

- من مكان مخيف لا أستطيع أن أقول عنه !

وتنحنى الأميرة سارة فى ذهنى لتتحول إلى علامة استفهام! لماذا تحب السفر ؟ وماهى أسرارها مع شهيرة ؟ ولماذا تعشق أن تكون مطلقة .. نصف حياتها فى شمس ساطعة ونصف حياتها فى بلاد الثلج والمطر !

وتوارت عيون الحبشيات .. أحببت عنب الشام من فم شهيرة . نسيت أقواس العاج . ورائحة العنبر .. وجه شهيرة يحتل غربتى .. يقتحم ترددى . لكنها فى الوقت المناسب تهرب منى .. تتركنى أعدو فى نفق مظلم . تبدو لأول وهلة جريئة ، تتصرف بلا عقد . وتسحرنى بوعود لم تقلها . النظرات تقيم الجسور .. النظرات صاحبة القرار .

مازال المطر ينهمر فى الخارج ، والصور تنهمر فى رأسى . رأسى علبة عجيبة من الأفلام الحية !

- ما الذى يعجبك هنا يا شهيرة .

- كل شئ مباح .. علنا .. نفعل ما تريد .

- والصحراء .

- أحبها حين يكون معى عشيقى .. بعيداً عن ظل السياف !

- والأسفار .

- ألف فائدة .. كما قلت نحن فى حاجة لإشهار عواطفنا .. حتى تكون أكثر نبلاً .

أضمها إلى صدرى .. تعزف الدنيا لحنا آية فى العذوبة .

المطر ينقر الزجاج .

لماذا رحلت الأميرة إلى لندن ، فى صحبة رجل غامض ؟ لماذا أحاسب الناس . لاتنس من أنت ؟

المطر ينقل الدنيا إلى أذنى . أتذكر صور حى مايفير ومناظر «الوست اند» والرجال والنساء وجو العشاق . وكلاب عارية مع سيدات عجائز ! وعرق ونقود وبرج بابل ! ويفط ولغات متناثرة . ومعان متشابكة ، دخان ، مخدرات . لماذا البنات الجميلات فى أجسادهن البيضاء البضة يعانقن أجساداً متفحمة سوداء ! لماذا يعشقن الزنوج ؟

سألت شهيرة : لماذا تحب الانجليزيات الزنوج .

لا أدرى .. اسألهن . لديهن الاجابة !

لماذا هجرتنى شهيرة .. اجلس هكذا مثل كلب لولو .. ماذا يحدث فى البيكادلى سيركس .. هناك سراً من اسرار شهيرة !

المطر يغسل جدران المدينة . يبدو الهواء قد كف عن الهياج .

سامية .. وطعام مصرى لذيذ . وضحكات تنعش القلب .. وتداعت إلى الذاكرة زيارات آل البيت ورائحة البخور .

تقف فى ذهنى صورة شهيرة .. ولمسات جريئة ناعمة وليال فيها الانسجام والفن وفى المقابل صورة سامية صديقة الجامعة ..

كم تغيرت سامية ؟ .. إنها تعرف ما تريد .. تكاد لا تعرف الحيرة . إنها تفعل ما يجب .. قدمتنى إلى زوجها الدكتور زهدى .. وهو رجل فاضل تجاوز العقد الرابع من عمره .. يبدو كانجليزى .. كما أصرت سامية من باب خفى أن تقدم شابه مصرية إبنة صديقة لها ، تدعى نداء ، وتمدحها فى كل شىء .. لماذا ؟ سامية لا تفعل شىء بالصدفة .. يبدو أن سامية لا ترتاح لصديقتى الشامية « شهيرة » .

قضيت أمسية دافئة بين أبناء جلدتى .. مع أفكار حديثة ، حتى ونحن نتحدث عن عادات مصرية قديمة جداً .

عدت إلى سكن الحب .. وكأننى أتوقع وجود شهيرة .. ولم

يكن أمامى سوى أجندة حمراء مذهبة الاطراف .. كتبت بعناية فائقة .

تحت المصباح جلست .. ورحت أتصفح بشغف أسرار شهيرة .. يبدو أن من يكتب .. لا يكتم سراً .. فى بعض الأحيان يسمح للغير أن يرى مناطق خاصة جداً تقول فى سطورها :

« لم يكن لحياتى معنى .. حتى عرفت الخوف .. ورأيت الموت .. وذقت الحب ! »

إنها تتكلم عن حاجتها الماسة إلى الحنان ، وقيمة أن تكون محبوبة . وأن الدنيا بلا حب .. صحراء جرداء ، وأنه لا أروع من خصوبة النفس بالتسامح وتعاطى الحب والحنان والتراحم .. »

وفقرات أخرى .. اقرأ عن أهمية الاعتراف عندها « الاعتراف شيء بالغ الأهمية لمن أراد تقويم النفس » . تقول شهيرة فى سطورها ، لم أختر الحياة ، وكلما مضت الأيام تأكدت أنها خطوات محددة سلفاً ! .. وكم كانت دهشتى حين رأيت أماكن جديدة .. وجدتها مألوفة لدى .. وأننى رأيتها من قبل . بل إننى عرفتها ولمستها فى زمان آخر .. لا أدرى ما هو ! والأشخاص .. كأنهم أصدقاء قدامى !

وأمام صفحة عليها نجمة وشريط حريرى أخضر .. على رأس الصفحة « أختى كوليت » .

أختى كوليت هى الأخت الكبرى ، جميلة ، ملفوفة ، شقراء

الشعر ، بيضاء ، لميس ، صوتها جميل . تعشق الغناء ، وتجيد العزف على البيانو . سافرت وحدها إلى لندن من أجل الدراسة ، وسرعان ما انخرطت مع بعض أفراد الجالية اللبنانية ، وكانت فنانة بطبعها ، تغنى فى الحفلات العائلية والرحلات ، وكانت تعشق الحرية والجمال .. كانت باسمة الوجه .. إلى أن تعرفت على شاب مصرى يبدو أنه من أهل اليسر والثراء ، ابن باشا ، لعبت نقوده وشيكاته دوراً فى تدعيم علاقته بكوليت .. وكان يصرف بسخاء على شلتها من أجل نظره من عينيها ! وقعت في غرامه - كما يقولون - فقد كان وسيماً .. على درجة من الفتوة والطول الفارع ، ويجيد الغزل . لم تكن كوليت فى حاجة لكبير جهد كى تلقى بشباك فتنتها حوله ! وكانت المجتمعات العربية فى لندن تألف رؤيتهما معاً . دعاها إلى رحلات عديدة فى أرجاء أوربا .. ثم دعاها إلى زيارة بلده فى مصر وسافرت معه .. وسحرتها مصر ببساطة المعيشة وحضارتها العريقة ، ولم تعترض حين قدمها للناس بصفتها خطيبته .

وأحبت كوليت محموداً .. ولم يكن الدين عائقاً .. وإن لم يطلب منها ذلك .. لكنها من أجله غيرت دينها ، فهى مسيحية وهو مسلم . مصرى ينحدر من أصول تركية . هنا توقفت إذن فصديقتى ليست مسلمة . هل تعرف الأميرة ذلك ؟

أم أنها « كوليت » أخت غير شقيقة ! .. ولا أدرى لماذا صدمتنى هذه المعلومة الأولية .. ولم أكن استبعد إنسانا عن

قلبى لاختلاف العقيدة والدين .

رحت أقرأ فى نهم ، « فنحن أسرة مسيحية ، ولم تكن بلادنا تعرف التعصب فى تلك الأيام ! وربما كنا نعيِّد فى أعياد المسلمين .. ونحتفل بمناسباتنا الوطنية فى أخوة » .

ويبدو أن كوليت سعدت بالزواج من محمود .. ورأيناهما معاً فى لبنان .. وكانت كوليت ساحرة فى كل شىء .. لازلت أذكر قبلاتها وهى تودعنى وتذهب مع زوجها محمود لقضاء شهر العسل فى باريس .

والحق يقال أن مظهر محمود كان يوحى بأنه أحد الأمراء .. طول ، عرض ، شارب يقف عليه الصقر .. وسبحه لا تفارق يده .. وفى أصابع يده خواتم ذهبية .. أنيق الملبس .. يتحدث بحساب كأنه سقراط عصره !

ودفعت أختى كوليت بقلبها تحت حذائه .. لكنه كان غريب الأطوار .. فهو بين الناس يرطن بعدة لغات لزوم الوجاهة والأبهة ، ويحضر حفلات الكونسير ، ويلعب البريدج والشطرنج ، ويتفاصح مع فقهاء السياسة ورجال الأحزاب عن نظريات الحكم ومشاكل المحليات وكأنه برنارد شو ! فى دعاباته ونكاته الذكية .. إلى أن بدأت كوليت تتبين شذوذ مطالبه وغرائب أطواره !

وحين تعترض على مطالبه البهيمية .. لم يتورع عن

ضربها بيده ويرفسها بقدمه ويقيدها بحبل ويجلدها بالكرباج .. ثم يقوم باغتصابها وهى تبكى والدماء تسيل من جلدها .. وسرعان ما يهدأ .. ويعود إلى صورته الانسانية الجميلة .. فيداعبها بلطف ويغدق الهدايا والعطايا من جديد !

ولأنها كانت تحبه .. فقد صبرت عليه وعلى شذوذه طامعة فى إصلاح أمره .. وكانت تعتقد أن الطب النفسى سوف يفعل الأعاجيب .. ولكن محمود لم يرض بالذهاب إلى أى عيادة نفسية .. ولم يرض أن يأتى إليه الطبيب وفشلت كوليت فى اقناعة تماما .. فكان يصرخ فى وجهها .

لست مجنونا يا بنت الـ ....

وتظاهرت بقبول عاداته ، وسايرته وصبرت على شذوذه واعتبرته مريضاً يستحق الشفقة .. ولكنه راح يتمادى فى ضربها بقسوه .. ويشوه جمالها الملائكى وكسر لها سنة من أسنانها الأمامية .. وبعد أن يقضى وتره يتكوم تحت قدميها يبكى ويلثم أصابع أقدامها .. ويلعق الجراح النازفة ! .. وكان يدفع بسخاء لخبراء التجميل الذين يحاولون إصلاح ما أفسده هذا السفاح .

كانت تصلى لله كى يمنحها القدرة على تحمل هذا الانسان العجيب الذى أحبته وكتبت فيه الأشعار .. وكم ندمت على أنها لم تسمع كلمات صديقة لها ..

- أنت ارثوذوكسية .. تتخلين عن دينك من أجل رجل .

- دينى هو الحب .. وهو رجلى الذى أحب .

- القلوب تتغير .. والدنيا مفاجآت .

- أنت لا تعرفين الحب ! .

- الحب ! لك الله يا أختى !

إنه رجل غريب .. لا تعرف كيف يشعر وكيف يفكر .. كأنه لا يفكر في جمال الأزهار .. لا يعرف التأملات الجميلة .. كيف تعيش مع رجل يدفع بها إلى الجنون دفعاً . يا ليتنى حجر .. الطقس رمادي .. وجدانى يحتاج لشمس لندن الضبابية .. والورود شاحبة . ذابلة الرؤوس تحت تدفق الأمطار !

راحت كوليت تتعلم الصبر ، كانت تطير فى عوالم الموسيقى والشعر .. وكانت كوليت مفطورة على حب الجمال والموسيقى ، ترهف السمع إلى حفيف الأوراق . وتتابع ببصرها أجنحة الطيور وارتعاش الأغصان .. واستقر فى القلب حزن دفين واحيانا تثور ويتملكها القرف والغثيان .

وتحول الحب العميق إلى بحر من الكراهية . ووجدت الحل فى مصانعته ومجاراته والتظاهر بالتفنن فى ارضائه .. إلى أن جاء صباح .. وجدوا محمود وقد قذف بنفسه من الطابق الحادى عشر من إحدى عمارات لندن ! .. وكانت كوليت بعيدة عن

مكان الحادث ! .. وبعد تحقيقات كثيرة .. اتسعت دوائر الدهشة أمام كوليت .. ظهرت أشياء كثيرة صادمة . تم تبرئة كوليت من حادث القتل .. ولكنها فى أعمق أعماقها تخطط لقتله .. وظنت كوليت أن محمود انتحر وفوت عليها فرصة الانتقام .. وجاء فى التحقيق أنه قتل ، ثم قذف به من الطابق الحادى عشر فى عمل عدوانى عنيف ، شديد العنف والضراوة . صدمت كوليت وشاعريتها رغم شعورها المقيت تجاهه ! والعجيب أن التحقيق لم يسفر عن حالة سرقة .. ذهنها لم يتوقف عن سر الانتقام الوحشى وكانت تود معرفة الأصابع التى وضعت حداً لمأساتها .

وكوليت لم تحب العنف فى حياتها .. ربما تبكى إذا رأت صياداً يصطاد حمامة أو رأت دجاجة مذبوحة ترفرف من حلاوة الروح !

وبدأت تخاف من المجهول الذى أطاح بالطاغية محمود .. وتعجبت أن تقيد الحادثة ضد مجهول ! وتتساءل ما المجهول ؟ وكلما جاء الليل أحست بأصابع المجهول تلتف حول رقبتها .. توترت أحوالها .

تحولت إلى شخصية ثائرة .. متشككة فى كل شىء .. تبحث عن الفرار من هذا المجهول وكأنها دفعت نفسها إلى منفى لا يدرى أحد متى تعود منه !

ورأيتها تبكى .. وتضع رأسها على صدرى - وأنا الأخت الصغرى ! - وكأنما أنا وطنها وكأنما تتمنى أن تعود من المنفى .. لكنها لم تكن تحب الكلام .. فلقد أحبت الرجل بصدق المرأة المحبة .. ولكن القدر لم يرحمها . ظل متربصاً بها .. تتوقع ضربة أعنف .. لأنها لم تفهم لماذا قتلوه ؟ لم يكن سياسياً أو رجل عصابات ولعلها رأت فى موته .. مجرد مفتاح لعالم نفسى بلا حدود .

وسمعت أشياء كثيرة عن محمود .. أما أنه الفتى المجنون بها ويحبها فقد عرفته والشاذ فى تعاطى الجنس .. وعربيداً يهوى السهر .. والشراب حتى تلاشى الوعى .

يقولون أنه اتصل بأخت طالب بعثة .. فلاحة يتيمة .. حملت منه . وارتمت تحت أقدامه ليستر عرضها .. قتلها أخوها وغسل عاره .. وربما يكون هذا الأخ هو القاتل ! يا للرعب والسخط ! ولكنها لم تسترح لهذا التفسير .. محمود له مصائب أخرى كثيرة .

كانت تبكى كثيراً .. تمشى ساعات طويلة فى ضوء النهار الساطع .. تبدو كالمجنونة تريد اقتحام الغابات الكثيفة . لا تمل من قراءة الأشجار الباسقة والأغصان المتشابكة الملتوية فى عصبية .. والنباتات الوحشية والأصوات الغريبة المنبعثة من أعماق الغابة المظلمة !

رأها أحد الأشخاص راكعة على الأرض تبكى .. وتسأل بصوت ضعيف .

يا الهى ما سبب هذا الحزن القاتل الذى يقتل نفسى .. وأنا أعرف انه يستحق الموت . لقد سلبنى عقلى وسرق كرامتى .. ولكنى لم أقتله .. ولا أعرف لماذا هذا الحقد وهذا الكره .

يا إلهى اكشف لى سر نفوس البشر أو أهلكنى .

كان ترهف الأذن لصوت أنفاس الحياة فى الغابة . تتطلع إلى صوت الحب يأتى من الطيور المرحة .. من طقطقة النباتات .. وحفيف الشجر .. من تغريد الرياح .. من سحب رائعة تركض فى فضاء السماء !

- كل هذا العالم .. ولا نفهم السر .. يا إلهى .. امكانية رائعة لشىء لا يتحقق أبداً ! يا الهى .. عقلى يسبح فى رماد محترق وزيت ملوث !

يا رب امنح قلبى الراحة . أكاد أحس بلوثة الجنون فى كل ما أرى .

رأها أحد الشباب .. راكعة .. شاحبة الوجة .. يعتصرها الأسى .. ولم يذهب لحاله .. ساعدها .. وخفف عنها .. وعاد بها إلى البيت !

ومرت الأيام .. وكالعادة مع كل الناس .. تبدأ الصدمة كبيرة فى الوهلة الأولى .. ثم تصغر مع التأقلم .. ولكن من يستطيع مراقبة الكدمات النفسية فى كوليت ! تضخمت

علامات الدهشة والاستفهام والتعجب . أشار البعض بالعلاج النفسي وبالتغيير ثم بالذهاب إلى مصحة بعد ظهور أثر الادمان على كوليت .

عادت إلى بلدها امرأة رائعة فى مظهرها الخارجى .. مخربة تماماً من الداخل .. كنت اراها تبتسم .. ثم تبكى .. ثم تضحك فى انفعال شيطانى - إن صح التعبير - ثم تنطوى على نفسها وتذهب إلى الأماكن الخلوية .. فنراقبها خوفاً من أن تفعل شيئا ضار بنفسها .

- كوليت .. لماذا لا تتحدثين إلى أختك .. هل مازلت حزينة عليه .

- حزينة .. ولم .. راح فى ستين داهية .

- ولماذا الأسود .. وأنت الوردة الجميلة ؟

- الأسود يناسب دنيتى !

- والحب والحياة والفنون التى تعشقين .

- شيء وصار ! وأشياء تحتاج من يستقبلها ويعيد خلقها وإبداعها فى نفسه .

إلى أن جاء يوم اختفت كوليت .. وتركتنا فى رعب وحيرة .. وذهبت بنا الظنون كل مذهب .. إلى أن تسربت إلينا الأخبار .. أنها احترفت الدعارة .. وأدمنت المخدرات .. وسارت فى

طريق بلا عودة .

كنت العن من كان السبب .. هذا الشاب الملعون الذى عذب روحها حيا وميتاً . ولم تسترح كوليت إلا بالموت .. مع قذيفة مباشرة .. أيام الحرب الأهلية !

ورغم هول ما يدور حولنا .. فقد كان عذاب كوليت مجسداً أمامى ! وعلمتنى كيف أكره بعض أجناس البشر .. ثم تاهت المأساة الخاصة مع مآسى الآخرين .

مع اشتعال النيران .. احترقت الأقنعة وانتفض الوحش البدائى داخل الأجسام فسقطت قشرة العصرية .

رأيت أمه تتقائل على شىء لا أعرفهُ .. صبيه يلهون بالسلاح .. يقطعون أطراف الاسرى .. ويعتدون على امرأة أمام أطفالها .. ويدحرجون رأس طفلها الرضيع فى حجرها بعد اغتصابه يوم كامل ! .. رأت الجنون فى العيون . وإنشطار كل شىء !

وتركت نفسى للتيار حتى لا أغرق .. وفى أول فرصة للهرب .. هربت بمعونة شاب عجيب اسمه كميل .. إنسان عجيب يتاجر فى كل شى.. وكل شىء عنده قابل للبيع والشراء .. يقامر دائماً .. هو خريج لمدرسة العنف ، والحرب الأهلية .

وقت حاجتى لانسان قوى .. وأنا ارهف السمع إلى صهيل الاحزان .. وفى قلبى مرارة .. ورغبة عارمة فى الرحيل .. فلا شىء متماسك .. كنت مضيعة .. تائهة .. شريدة .. الذكرى ألم

وتعاسه ! .. والرصاص لا يجعلك تقف على الأطلال ورسم الديار ! .. يختلط المسك والعطر بالدم والقيح والصديد .. النظرات المجنونة للشباب ونساء عبرن فى حياتى .. واسماء شباب لا يرتبطون إلا بالليالى والحجارة .. والنار والكأس .. وأشياء لا أريد أن أراها بعد الآن أبداً .. وقلبى يمقت المباهج وضحكات النسوة الداعرات .. كن سيدات وتحولن إلى عاهرات .. نسوة أضعن كل شيء .. وضاع منهن كل شيء.. وجاء كميل بالدراهم والسفينة .. والرحلة إلى بلاد أمنه . وحملت كل الآلام تحت جوانحى .. كل السطور يعرف أسرارها كميل .. وفى مواخير الغرب .. عملت .. فى جالية من الرقيق الأبيض .

وهمس فى أذنى ذات ليلة .. كميل

- هناك فرصة ذهبية لك .. تذهبين للعمل في الخليج .

- ولماذا نتجه شرقاً .. لم العناء وهنا الجو الجميل والنقود تتدفق إلى جيوبك أم تراك مللت منى ! قلت الكلمات الأخيرة فى دلال

- المصلحة هنا .. وسوف تكونين هنا فى أى وقت ..

- أهو المال

- إنه اللعين . ومساحة جديدة للعمل . سوف تكونين لى رأس حربة .. حربة من حرير .. اسمعى .. سوف تسافرين إلى الخليج .. الجولة تبدأ من هنا .. سيدة عجيبة اسمها الأميرة

ساره .. لديها أموال لا تنتهى .. وشركة فى لندن وفروع فى معظم الأقطار الأوربية .. وتحتاج سكرتيرة خاصة .. تجيد اللغات .. وكتم الاسرار !

- هاها .

- قلت انها غنية جداً .

- أغنى من قارون .

- من قارون ؟

- شخص أسمع عنه ولا أعرفه يقينا .. هيا الحركة بركة .. أما تخافين من مغامرة صغيرة تقتلين بها الملل .

- لا بأس !

- إذن اتفقنا مدام شهيرة .

- من مدام شهيرة ؟

- أنت .. إسمك من الآن مدام شهيرة .. وهذا جواز سفرك .. وأنت من الأن مسلمة .. سُنية !

- يخرب بيتك .. أنت .

- آمين !

- والراتب .. فلا بأس أن نسأل عن النقود .

- راتب وزير .. وحياة أميرة ومناخ مخملى يحسدك عليه

بنات الشرق والغرب .

- وأين تكون إذا احتجتك .. أين أجدك ؟

- لا تسبقى الحوادث .. ستكون عيوننا معك فى كل لحظة .. وفى كل مكان !

- مـاذا تعنى ! هل لديك بلورة سحرية مثل ساحرات الأساطير ! ..

قال بحسم : سوف تعملين هناك .. بتوجيهات منا .. وسوف تستفيدين ونستفيد منك .. ولن نكلفك بشيء يصعب تنفيذه .

لا تحدقى فىَّ هكذا .. لسنا مافيا يا عزيزتى .. نحن قوم نعيش وسط أغنى أغنياء العالم .. ومعنى أن نظل فقراء فهذه مسئوليتنا نحن !

- وما هو عملى بالضبط ؟

- ستكونين وصيفة للأميرة كما يسمونها هناك فى مدن الملح .. وفى الغرب يسمونها مديرة أعمال .. وفى الشركات عندنا سكرتيرة خاصة جداً .

- وإذا لم تعجبنى الحياة فى مجتمع صحراوى .

- تعودين إلى هنا أو فى أى مكان .. ونحن فى عصر الطيران .. مسافة احتساء فنجان قهوة .

تذكرت القهوة .. قمت وعملت لنفسى كنكنه قهوة سودا ء سادة . لعلى أفيق تماما مع سطور شهيرة . هل أتصفح أوراقا سرية .. أم أوراق دست لى كى أقرأ ما يجب ، وأعرف ما يجب ! .. أي كائن هلامي شهيرة !

أقلب فى الصفحات .. تتحدث بايجاز عن حياة الخليج .. فى البداية وجدت رغبة عارمة فى القيام بمغامرة .

تقول شهيرة فى فقرة بلون حبر أسود : الحب أنبل مشاعر البشر .. لكن الحب يقتات الخيال . والصحرا ء من حولى حارة بالنهار .. لذيذة البرودة فى الليل .. تحثك على الخيال .. والقصور هنا مزروعة فى الصحرا ء مثل علامات التعجب .. وكأننى أتوقع أن تأتى رياح تكنس كل شيء وتدفن كل شيء .. فى يقينى أن الرياح سوف تأتى مثلما حدث .. وتداعى لذهنى قوم عاد وثمود .. وإباحيه سدوم وعمورة .. وتخيلت آبار النفط تشتعل .. والناس تتعامل فى عز الظهيرة بالسلاح الأبيض .. ورمال الصحرا ء تشهد أطماعا بلا حدود !

الرجال هنا عطشى .. يدفعون دما ء قلوبهم من أجل المال .. والسيطرة .. وامتلاك الحب .. تراكمت أفخاذ النسا ء .. وتدافعت الارحام .. وانطلقت مدفعيات ثقيلة تقذف حمم الرغبات المسعورة .. في القصور العجيبة تنبت الأعاجيب ..

هنا قوادون يتكلمون دستة لغات ونسا ء جميلات شقراوات

وبيضاوات وخضراوات العيون .. وطائرات تسافر كل لحظة شرقا وغرباً تنقل الخمور والمثلجات وأكداس الأسلحة والبارود .. وأفلام الدعارة .. وأخبار المؤامرات .. وأغاني بورصة المال .. وبدو يقرأون داوجون وطوكيو ولندن والفاينتشال تايمز .. وغرف مكيفة تحتوى أحدث أجهزة الكمبيوتر .. وصبية وغلمان يضارعون أجمل قوام ! .. لأشهى النساء !

الرمال تشهد شذوذا وتنهدات وصرخات .. والسجون تمتلىء .. وتشنجات تنتهى بالدفن فى الرمال ! .. ولا يشهد على الجرائم اليومية سوى أحذية غليظة مدججة بالسلاح .. وكلاب السلطة وحراس السلطان .. وأسوار تتحدى النسور وقطع الليل !

أقلب الصفحات . شهيرة تتحدث عن الأميرة سارة .

الأميرة طيبة .. وهى لا تعرف ماذا تفعل بنقودها .. مثل الأميرات الأخريات .. أحاديثهن فى الهاتف .. وإقامة الحفلات والأحاديث المسلية .. وممارسة الجنس .. والانشغال بأشياء خاصة جداً .. الصغيرات منهن لا يهمن سوى الفيديو وأفلام الرعب .. والأفلام المصرية وقصص الغرام .. والقصص الأجنبية .. وبعضهن يعشق السياسة ولا يملكن الولوج إليها إلا عبر الذقون .. الأبناء والازواج وأولاد الخال والعم .. وتقمص أدوار عفا عليها التاريخ .

تقول شهيرة . نعم الأميرة امرأة طيبة .. لم تعرف الشقاء مثلى .. لم تعرف ذل الحاجة .. ولا معنى أن يتحول بيت العائلة إلى كوم من أسمنت ورمال وعظام ومدافن عفنة تحت القصف هى وغيرها .. لم تعش مثلى فى فناء الشيطان .

أنا حائرة .. لا أدرى هل أحب الأميرة لأنها تعطينى الكثير .. أم أحقد عليها لأنها تفقدنى صلاتى وعلاقاتى القديمة .. تريد أن تمحو بطش الحرب القذرة .. وهيهات !

أنظر إلى حياتهن .. وأكظم الغيظ .. أحاول لوى عشرات الرغبات إلى الداخل .. كيف أنسى مشاهد القتل .. وكيف أنسى زميلة الدراسة التى حطموا ذراعيها وكسروا ضلوعها لمجرد قولها (لا) .. بصقت عليهم .. جردوها تماماً من كل شىء .. وجعلوها تجرى فى العراء .. ويطلقون الرصاص تحت قدميها ويضحكون فى وحشية !

فى غياب الدين والقانون .. كل شىء مباح .. الحرب تعلمنا أبجدية الهمج ! وكيف أنسى عيون الشباب .. تلك العيون الوقحة .. النهمة .. وأفواههم تأكل وتغتصب القبلات .. وتبلع ضحكات فاجرة وتخرج أصواتا أشد بشاعة من فحيح الثعابين تحت الشمس .. يتجمعون فى خرائب .. وحول خيام .. أو فى حانات كئيبة .. يأكلون لحوم البشر .. ويشربون الخمور .. والكروش تعلو .. وتعلو .. وبلاعات أترعت بكل أشكال السموم .. وطيور سوداء تحلق .. وصرخات الموت كل ساعة ..

ونساء يتشحن بالسواد .. لفقدان عزيز !

وأينما ذهبت فى قاعات مبطنة بالقطيفة والأرض مفروشة بأفخر السجاد .. ويتدلى من السقف ثريات كأنها أنهار الضوء .. ومبانى شاهقة على أحدث طراز وأعلام مرفوعة .. تحت سماء صافية زرقاء .. وتحت كل هذا البهاء .. رحت أدفن جثث الأفكار .. وأدفع الاتاوة كلما طلب كميل . ورأيت رجال على شاكلته يعبرون كل الساحات هنا . وفي كل مكان .. سماسرة القرون العجيبة !

أقلب الصفحات .. فى لحظة من لحظات الملل .. وأنا أتابع رحلة الشمس خلف زجاج القصر .. وفى جو بارد من صنع التكييف . ورأيت « المصرى » . جاء إلى صحراء .. إنه شاب عادى .. به فحوله بادية .. لا يسرف فى التأنق .. يختار الفاظه بعناية .. يبدو أنه يبحث عن فرصة لدى الأميرة .. ولم يمنعنى الملل من المراقبة .. يبدو أن الأميرة تلهو أيضاً لمست أنه يحب المال .. الأميرة ترسلنى إليه .. تراقبنى .. لا يهمنى .. سوف أحصل عليه .. إنه هدف سهل .. إنه بخيل يتطلع إلى خزائن المال .. هنا لا يعطون إلا بحساب ولكنهم يحترمون من يقتحم ويأخذ .. لا من يتوسل ويستعطف ويتسول !

بدأت أتوقف .. هل تصفنى شهيرة .. أم تصف كائنا لا أعرفه .. « المصرى » من يكون ؟ أستمر معها فى رحلة الكلمات .

المصرى يطيل الجلوس إلى جانب الأميرة .. يعرف كيف يجعلها تتعلق به .. يجيد النكتة .. مهزار ! يبدو أنه يحب اللحم والنساء .. وليس به شوذ رمال الصحراء .. لكنه يبدو يميل إلى الدعة والكسل .. كأنه يتوقع أن تأتى الأشياء إليه ولا يذهب إليها !

بكل تأكيد .. فى أعماقه عرقا شيطانيا .. سوف أعزف على وتره الرجيم .. وسوف أنتقم لك يا كوليت ! .. سوف أنتقم لك يا كوليت الحبيبة !

وأقلب الصفحات .

اتصلت بالمصرى هاتفيا .. فانا بسهولة أعرف رقم هاتفه .. وأعرف انه يعيش أعزبا .. فى بيت متواضع منعزل .. وانطلقت فى أعماقى ثعابين كثيرة .. وتراقص اللهب فى العيون .. واستحضرت أوجاع كوليت واللعين يضربها بالكرباج .. ويحبسها فى الغربة والعذاب .. سوف انتقم لك يا كوليت !

راحت أناملى الحريرية تعبث بكل شىء .. تبحث عن كنوز الرجل في الغربة .. تحرك الأشياء القديمة المنسية فى الماضى البعيد ..

سوف أذبحه على مهل .. وأسلخه على نيران جوانحى ! سوف أسخره كالعبد ! ليس لدى ما يشغلنى ..

عالمى .. داخل غرف مقفلة ، وهواء بارد مصنوع . وفى الخارج صحراء عارية .. تسخر من كل شىء ! ولا تعبأ

بشيء .. ولا تبالي بأشكال الحضارة .. البثور !

وأقلب الصفحات .. قضيت معه سهرة حمراء لا يحلم بها الشيطان نفسه .. وانفتحت المغارات .. وعوت الذئاب . وصرخت الشمس من بعيد ! القائدة ترتجف فوق قمة الحصان .. ترتجف .. تسوطه ! يا لها من لعبة ! أين اللحم والسكين ! أين الطاعن والطعين .. أين دماء الضحية .. تتلاشى صورة كوليت ! سامحيني كوليت .. لست من قبيلة دراكيولا ! ولا من فصيلة الخفافيش !

أقلب الصفحات .. ويل لي .. كميل يظهر كالمرض .. يعترض كالمرض .. أو أسمع صوته يذكرني بأشياء بغيضة .. بغيضه إلى أبعد حد !

الأميرة تزداد سحراً معي .. تحتضنى وتقبلنى .. وأحيانا أشعر أنها تأكلنى .. أحس بانفاسها الشبقة .. يبدو أننى أعجبها .. بالفعل أعجبها .. دعتنى أمس كى أنام معها ! وكانت ليلة عجيبة فعلاً ! ليلة فيها من فنون السحر والشيطنة مالا يخطر على بال ! أعدت قراءة الفقرة السابقة ولم أفهم شيئاً .. ماذا تعني شهيرة .. هل الأميرة سارة .. أووه .. مستحيل ! إنه خيال جامح ليس إلا .

وأستمر فى تقليب الصفحات « الناس هنا يعيشون فى قلب المجهول .. لا يعرفون سوى الامتلاك .. وشتان بين أن

تتملك أو تكون !

ليست حياتهم دنيا الحب والعطاء .. إنما أشياء متناقضة .. أقنعة .. وكلما خلعت قناعاً وجدت تحته عشرات الأقنعة ! سارة قناع وأختها حصة .. وأختها فلوه .. وابنة عمها نوال .. وشلة عجيبة .. وأقنعة باسماء مختلفة شعاع وأمل وخلود وعبير ومنيرة وهيا وعشرات من الأمهات .. أم خالد .. وأم محمد .. وأم سلطان وليس في رأسي غير طنين ، وطبل .. الخيانة انشودتهم المفضلة .. والخيال مطلبهم والنفاق سبيلهم . طالما دخلوا حزام الأمن الصحراوي .. وحتى داخل قصورهم وحصونهم المدججة بالمال والسلاح والجاة ! المال وشهقة الماس في صدورهن .. يا ويلي !

بدأ السم يسري في جسدي .. وبدأت أشعر بالحاجة إلى الحب .. كيف هذا ! وهذا المصري يمنحني من غاطفة القلب ما يجعلني أنسى طموحاتي الشيطانية .. أراه يسلم لي رقبته .. ويحدق في عيني ببراءه ترغمني على إلقاء السلاح .. كم هو أليف كالقط .. وفيٌ كالكلب ! حاولت استشارته وتحريك مكامن الغريب في أعماقه .. أقلب شهوته بألوان أتقنتها من الشذوذ ، فكان معي كريما ودوداً لطيفا .. ماذا أفعل في قلب جاء بالحب ولا يهمس إلا بالحب ! أشعر معه بأنني امرأة .. ما ذنبي كوليت !

لم أستسلم لعطر الأنفاس .. أقاوم .. كلما تذكرت فارس

عصرنا الأغبر .. كميل .. ومن لف لفه .. ويسقط على ذاكرتى تراب سنوات النحس والظلام .. ولحظات كتبتها سنوات الحزن والحرب واليأس والموت .

تطاردنى صورة طفلة ذبحوها ذبح الشاه .. وصورة شاب خلعوا عينه بسكين وأرغموه على أكلها بتهدد السلاح ! كيف تطيق أن ترى بشرا يحكمون أن تأكل بعضك ! ولا زال الرجل الضخم الجثة ينام فوقي .. ويفقدنى بكارتى .. ويتركنى ممسحة .. خرقة .. ماذا يجدى البكاء .. رصاصة تسكتنى لو أراد .. والملابس الجديدة والعطور والقصور لا تزيل رائحة الضبع .. ورائحة الجيفة ! من الغريب أن يلازمنى هذا الأحساس طيلة السنوات ! مهما لبست من فاخر الثياب ، أو سكنت فى أنظف سكن فى أنظف أثاث .. فلا أمان ولا سكن .. ولا شىء يستر عورتى !

مسكين صديقى المصرى .. يصر على السكن فى الزوابع .. وأنا مملكة مسمومة يحاول الولوج إلى أعماقها !

وكأننى أحاول كل مرة أن أعرض عنه .. أو أجعله يعرض عنى .. ولكن كيف يفهم أننا من عالمين مختلفين .. ما قيمة قلعة تم اختراقها عشرات المرات ! وممر مدهوسة بالأقدام الموحلة !

*

ما سبب الحروب ؟ يبدو سؤال بلا معنى تحت وابل الرصاص ! سؤال أشد سخفا لو طرحته على رفاق السلاح .. سوف تتهم بالخيانة والعمالة ، والتخاذل !

لا زالت العين تحتفظ بصور العسكر ، وهم من مرتزقة عصرنا ، يدعسون بكعوبهم الغليظة ، تلك النباتات الصغيرة الخضراء .. أكل الناس .. وأحس نعالهم الغليظة تسحق قلبى .

فى زمن الحرب .. وفى لحظات الهدوء الحذر ، أربط اللاشىء باللاشىء .. الذكريات التعسة بمناظر الجثث والأنقاض .

وإذا أسدل الليل أستاره السوداء .. وبدت عقارب الساعة متيبسة . وينبت فى القلب ، وخلف العقل شذرات تتشكل لشبح مقيت .. ومشهد الاغتصاب المروع لفتاة مسالمة . ينشق الجدار عن ذئب بشرى .. وضحية .. وساعة مرمية مهشمة وبقعة دم .. وأنهار الدموع لاتجف ! ورياح الشياطين انطلقت . وتلاشت ألوان البحر والسماء .. وتلاشى الشجر والقمر .. وتلاشى الفجر والسحر !

*

أغنية نشاذ .. ورصاصة تخترق .. تصفر ، تسافر إلى بيت من لحم .. تحمل معنى الموت .. أو الرعب !

طالعت بصرى صورة كنيسة .. جلست أسمع الكاهن .. هادىء كالموت . يتحدث عن الانسان وكيف يحمل بطبيعته كل

عناصر العالم ، يختزن الدنيا كلها فى داخله . إنه - الكاهن - يتحدث عن الطبيعة التى تسبح للخالق ! هل أصدقه ؟ وأنا أرى الطبيعة تحترق وتهدر بالغليان والطيور لا تعرف عدا الخوف والفزع . وتركت الرجل يصلي من أجلى .. ومن أجل الزرع ومياه النهر .. يصلى بلا رجاء ولا فائدة ! ويشهد على ذلك الشيطان الذى دهمنى ذات ليلة ! والشيطان الذى عذب كوليت . والشيطان الذى يدير ، بمهارة ، حرب بلا معنى .

*

كميل .. ذلك البعيد .. القريب .. كيف ظهر فى وقت عجيب ! ظهر حين ضاع كل شيء . ظهر كما لو كان المنقذ من الغرق .. فقدم الطعام والسكن والنقود ، وراودنى ، فطاوعت .. أهديت له نفسى . وهالنى فيما بعد أنه يحتفظ بفيلم (فيديو) وأنا أمارس الحب . فهمت اللعبة . ثارت النار فى عروقى ، هجمت على الشريط أمزقه ، راح يضحك بوحشية . وحين تماديت فى الغضب صفعنى على وجهى بقوة .

- أسكتى يا بنت الـ (.....)

نحن فى زمن الحرب لا نحتاج إلى هذا .. انما أردت أن تشاهدين نفسك بعين جديدة تشاهدين روعة جسدك .. إمكانات رائعة لابد أن تُستغل ..

- أخرس .

ضربني بقسوة .. واستسلمت له .. ووقعت فريسة الانهيار والمرض ! وانتقلت إلى مكان يسيطر عليه .. وأما عنى فكيف أقبل العيش فى عالم مقلوب ؟ ذلك هو السؤال ورحت أقلب الأمور فى ذهنى ، بعد زيارته المتعددة .. كميل .. الأبيض البشرة .. الطويل والمعتد بنفسه .. يرتدى أفخر الثياب المستوردة .. جيبه منتفخ بالمال .. يتعامل بالدولار والاسترليني يدخن السيجار .. يتكلم بتؤده ورصانة . وبدأت أراه فى إطار الصورة المجنونة لحريق العالم من حولى ! يخيل إليك أن كميل لا يعرف الحب أو البغض ، ولا يعرف معنى الاخلاق ، ولا يؤمن بإله أو بحساب وعالم آخر غير عالمنا المحسوس !

وقال لى ذات يوم : خسارة دفن الكنز فى الأوحال . سوف تسافرين إلى أوربا .

- أوربا . مرة واحدة .

- لندن أول محطة .

وظننت أننى فى مدينة غريبة ضخمة سوف أفلت من رقابته الصارمة ! فيحسم الأمر بسرعة . أكتشفت معرفته للعديد من أصحاب النفوذ وأصحاب القرار فى عدد من عواصم الدول العربية !

وقدمنى إلى شخصية عربية هامة .. كجزء من نشاط إعلانى له .. ونجحت وعرض على الثرى العربى أن أذهب

معه .. وكان صريحا مع كميل قائلاً له : سوف أوزنها بالذهب .

رفض كميل بيعي له .. لدرجة أنني ظننت انه بدأ يحبني ! ونصب شباكه إلي بلاد النفط .. وكان سببا في عملي عند الأميرة سارة .. وأرى أصابعه هناك على البعد .. ترسم الصور فوق رمال الصحراء .

وعرفت أنه من الرجال المقربين لدى الأميرة سارة .. وتأخذ رأيه في صفقات تعقدها في لندن وباريس وزيورخ !

وكنت أراقب بقلق وغيظ .. علاقته الوطيدة ! وأسأل نفسي هل يعمل لصالح الأميرة .. أم ضدها .. أم يعمل لصالح جهات أخرى ! ولم أستطع الحصول على معلومات كافية من الأميرة سارة .. التي بدأت تستغلني بطريقتها الخاصة جداً .

*

في بعض الأحيان .. أردت العمل لحسابي .. وكنت راغبة فعلاً في الاستقلال . وتمنيت أن أعمل بحرية مثل بائعات الهوى في سان بولي .. فهن يعملن في أمان وبترخيص ، وبعيداً عن أمثال كميل .. لماذا كتب علينا الشقاء !

يبدو أن أي محاولة للإفلات ستكون متأخرة ، كميل أذكى بكثير من تفكيري .. وقعت على شيكات بدون رصيد ، وايصالات أمانة ، ومستندات مزيفة .. الإسم المحرف والديانة ،

وجواز السفر .. كل الأوراق تسيل كذباً .. وأفلام تحولنى فى لحظة من شهيرة المحترمة المعروفة فى القصر إلى مجرد خرقة باليه ..

لكننى عرفت أنه يدفعنى ليس لترضية زبائنه في شقق فاخرة فى لندن وباريس بل يستخدم التسجيلات - الصوت والصورة - ضد شخصيات كبيرة عند اللزوم !

يعرف كيف يستخدم مشاهد الضعف البشرى والتى لا تخرج فى معظمها عن ممارسات الفراش . وقد تكون هذه الأشياء جزء من الحرية الشخصية فى المجتمعات الغربية .

- ما لم تمس الأمن والأسرار القومية ولكن فى مجتمعاتنا الشرقية المحافظة - أقصد المنافقة - فالأمر يصبح أكثر من قنبلة شديدة الإنفجار .

أتذكر كلمات سمعتها من صديقتى اليهودية التى تعرفت عليها فى بيروت ذات يوم « إذا استطاعت عين ابن آدم أن ترى الشياطين من حولنا .. أصبحت الدنيا مستحيلة ، والحياة صعبة جداً » .

- لماذا ؟

- لأن عدد الشياطين أكثر من عدد البشر ! وهم حولنا في كل مكان . على كل جهة .. يمين وشمال .. آلاف الشياطين !

- يا ساتر - من أين تأتين بهذه المعلومات الفظيعة ؟

- من التلمود يا حبيبة قلبى !

- آه - التلمود .. لم أعرفه بعد !

لا شك أن عقيدة صديقتى اليهودية على درجة كبيرة من الصحة .. والدليل هو وجود شخصيات مثل كميل ، وعصابات المافيا وتجار المخدرات والأسلحة ومشعلى الفتن !

*

شهيرة تتطلع إلى الحب .. وتعتبره أنبل ما فى حياة البشر .. تقول عنه : إنه يقتات الخيال .. والصحراء فى الليل مسرح رومانسى .. والرجال عطشى القلوب .. تتحرق أشواقهم إلى رعشة ولهب !

وعن الأميرة .. إنها طيبة ، ذكية .. وتتحول إلى كهف شيطانى فى بعض الأحيان ! ثغرة ملتهبة .. شبق .. عطشى للخمر والقمار والمغامرات .. تهوى الكتب والمجلات ولا تمل من الفيديو وأفلام السكس ! ولها مظهر يخدع الرجال .. تحسبها طفلة ! وأراها تداعب المصرى .. لكنها تركته لى .. وكأنها تتطلع لمشاهدة لعبة القط والفأر وأصبح السؤال .. كيف أستحوذ على خيال هذا الكسول ؟. وكيف يندفع هذا البخيل ؟.
المصيدة جاهزة على كل حال !

وفى صفحة مستقلة .. عبارة .. (كل شىء يجرى على ما يرام) ! لا أدرى ماذا تقصد !

*

كميل يستخدم كل أساليب اليهود فى جمع المال .. وكأن الدنيا تتلخص فى كلمة واحدة سحرية هى (المال) .. ولديه من يعاونه فى تزييف الأوراق والجوازات وشركة وهمية لا أعرف لها مقراً ! .. لكنه يصور أفلاما رديئة للابتزاز من الشخصيات الكبيرة فى المنطقة العربية !

ولا أدعى اننى كنت مسلوبة الإرادة .. كيف ؟! يبدو أننى التزمت بمسيرة كميل وعرف كيف يعزف على الأوتار ! واستغل القلق الذى يشرنقنى .

ولا أدعى أننى كنت مطية .. أن ما يطلبه كميل يتفق مع ميولى .. بل انه يكتشف الغامض فى أعماقى !

أتأمل حياتى وما حدث لأختى كوليت .. فأشك فى أمى وأبى .. يقولون أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون !

ولكن ماذا عن وطن يحترق ويتعرض أولاده للحريق والاغتيال ! أهو غضب إلهى كما يقولون !

ما ذنب أبناء الرحلة المرعبة ، ومن تعرضوا للخطر تحت الحصار المرعب ! .. لماذا يُؤخذ الصغار بذنب الكبار !

على كل حال فإن أبى لم يكن متديناً .. لم أره يصلى .. بعكس أمى التى كانت متعلقة بالكنيسة .. تصلى قبل الطعام .. كثيرة الدعاء .. والرعب !

ولم أتعود الذهاب إلى الكنيسة إلا بصحبة صديقة للزفاف .. أو لقضاء واجب قداس لميت من الجيران مثلا !

والعجيب كنت أتعلق بأبى أكثر من أمى !

*

كنت صغيرة .. كثيرة الأسئلة ، أجلس إلى أبى .. وهو نصف مخمور .

– أين الجنة يا أبى ؟

– هيه .. الجنة . الجنة . أقلت الجنة ؟

– نعم الجنة ؟

– أو يشغلك شيء كهذا ؟

– أسمعهم يتحدثون عنها .. صديقات أمى .. وفى الكنيسة .. وفى الطرقات .

– المعذبون فى الأرض .. يتحدثون عن الجنة دائماً !

– لا أفهم يا أبى !

- سوف تفهمين حين تكبرين .. معنى الجنة والنار .. وسوف تشاهدين جهنم .. وتحلمين بالجنة مثلهم .

- ألا يوجد جنة ؟

- الجنة هنا .. في الأرض .. حين يشبع الناس .. وحين أجد زجاجة نبيذ معتقة .. وشواء .. وحين تلبسين فساتين جديدة .. ومعك نقود .. وعندك بيت جميل وحولك الأصدقاء .

ورأيته يتكلم وكأنه يحلم .. راح يقول :

يا أبنتي : الجنة .. ستكون هنا حين يعرف الناس قيمة الناس .. وحين يعملون ولا يقاتلون ويتقاتلون .. الجنة في الصدق .. وحب الناس والحيوانات والنباتات .. حب كل شيء !

الجنة حين يتعلم الإنسان ألا يظلم نفسه .

- وكيف يظلم الانسان نفسه ؟

- هل نستطيع شراء منزل كهذا بليرتين ؟ طبعا لا .. أن يطلب الإنسان ما يستطيع .. وما يقدر عليه فعلاً ، حتى لا يشتري جهنم .

وراح يشرب من الزجاجة ويحدق في الأفق البعيد .. ويقول : يجب أن يتوقف الإنسان عن حرب الطبيعة .. هناك يا ابنتي من يرش النباتات بأشياء ضارة . وهناك من يقطع الشجر ويقطع عنقود عنب قبل نضجه . مسائل تجارية ضاره جدا . وهناك من يبني الأسمنت فوق حقل أخضر يأكل منه الناس .

كل هذه جرائم .. وسوف لا يجد الناس ما يحتاجونه .. وأنهم يمشون في طريق مسدود .

هكذا كان يتكلم أبي .. يتحدث مثل المفكرين والفلاسفة . ولكن حين يثور ويغضب يصبح مثل الزوابع والرياح ..

كان يحب إبنته كوليت حباً جماً .. يجلسها إلى جواره .. وأمامه على الطاولة النبيذ وأطباق المزة ، الحمص ، والخس ، والكبدة المحمرة .. ويمزح كثيراً عن الناس والأيام البعيدة وأماكن الأسفار ، ويتذكر أفراداً لم نرهم رحلوا إلى البرازيل أو أمريكا . وكانت أمي تحبه وهو في هذه الحال ..

وأحيانا كنت أسمعه يداعب أمي - في الظلام - وأسمع صوتها .

- أصبر يا مجنون .. ليس هكذا .. ليس الآن !!

*

من الصور الجميلة التي تسافر إلى ذاكرتي صورة جدتي لأبي .. تأخذني في أحضانها الدافئة وتحكي لي أساطير الأغريق وفينيقيا وحكايات ألف ليلة وليلة . فأنام متأهبة لرؤية عالم السندباد البحري والبري . ولم تكن جدتي تعرف بأنها تقذفني في بحر بلا قرار . فأنا أكف عن السؤال ، لمذا تتفنن شهر زاد وتلفق تلك الحكايات العجيبة ؟ وتجيب الجدة : حتى لا تموت ! .. ولماذا كان الملك قاسياً يضرب أعناق الفتيات ولا يستحي !

الفتاة في بلادنا لا تفهم الرموز الجنسية دفعة واحدة ، وربما تعلمت كل شيء بعد ليلة ليلاء ، وتعرف أن الكنز يمكن أن ينهب في لحظة . وشيئاً فشيئاً بدأت أتفهم تصرفات النساء ، ولماذا الاهتمام بالحناء والروج والعطور والموضات .

*

المطر ينهمر .. ينقر زجاج النافذة .. وجلسنا في الغرفة نحن الثلاثة .. أنا ومسجل الموسيقى وكراسة (شهيرة) ألتهم السطور .. وأتخيل أنها لم تكتب هذا للنشر أو البوح به للغير . ولعلها التزمت بما قالته في صدر الكراسة (الدفتر .. كرسى الإعتراف .. ثم إلى النار ..) !

ومع سطور شهيرة .. استمر في القراءة .

أسرتنا مفككة .. عمى لا يزورنا إلا فى المصائب . أهم شيء عنده النقود والتجارة .. ولعله آثر العزلة عنا .. لكن له شلة .. ويبدو انه مشغول برفاقه .. جماعة استغرقتها اهواء المال والعلاقات مع (أهل الحظوة) ! وهم أبعد ما يكون عن الدين والتدين . وأبى يبادله كراهية صامتة . وخالنا .. رجل طيب ، لكنه سكير مثل أبى .. ولا يحب التعب فى الأعمال .. يعيش للرفاهية . يميل إلى الكسل ، خمول .. أكول . له كرش يتدلى .. أصلعُ الرأس .. يهمل أظافر يده . يبدو مثل أهل الكهف لا يتجشم العناء فى اختيار الفاظه حين يتكلم أما زوجة

خالنا .. فهى عجوز .. شمطاء .. حيزبون بحق .. سخيفة فى كل شىء ولا أدرى كيف تزوجها خالنا .. تدخن بشراهة ، مدمنة لا تفيق . غير مبالية حتى لو قامت الحرب العالمية الرابعة ! أو عاد المسيح من جديد ! العالم كله فاسد .. لا تؤمن إلا بالخمر والكأس .. والنوم مع أبليس !

وكانت جدتى هى آخر قلاع الرومانسية . آخر شجرة فى غابة مهددة . جدتى عاشقة العطور والبخور وقصص الكتاب المقدس وعالم ألف ليلة . كانت قليلة الطعام .. ربما تكتفى بكسرة خبز وبضعة زيتونات . وفى أعياد الميلاد تجلس إلى الأسرة تشرب البيرة وربما تقطع قطعة من (البيكون) مع لقمة خبز مغمسة بزيت الزيتون .

وتقوم بزيارة متعددة للراحلين ، ضيوف أمسها . لتضع زهوراً وتبكى وتعود محمرة العينين ، مصدعة الرأس . وتنكمش على نفسها لتنام !

*

كميل .. عين الصقر .. اليد الطولى .. ومخالب حادة تمتد إلى كل مكان .. يرغمنى كثيراً على الحضور إلى لندن أو زيورخ بسويسرا لعقد صفقات مريبة مع بعض الحيتان من الخليج . كنت سكرتيرته .. وقطعة اللحم (المثقفة) !.. وإن

كان يملك من الحسناوات جيوشا تسد عين الشمس ! يعملن في الملاهي والكازينوهات ، ومكاتب الأسرار البهيجة .

*

دب خلاف بيننا .. هددني كميل .. يُلَمِّح بفضيحة عند الأميرة سارة .. الدين والجنس والسيف والصحراء .. وشوارب سوداء في حنايا الجبل وأسرار رجال الأعمال ، وأموال قذره يتم غسلها ، ومافيا وتهريب .. ودموعي .. ودعائي أن أتخلص من خيوط العنكبوت !

رعب وفوضى إقتصادية .. وأصابع تعمل في الخفاء .. وأقنعة مثل كميل .. فأحس بأنفاسي تقصر وتضيق .. والناس ذئاب !

ماذا يخسر أمثالي .. ما قيمة أفلام وخطابات تهديد ومكالمات وبذاءات .

غداً معركة أخرى .

*

أراقب هذا المصري .. يتحرش في صدري حقد أزلي .. كرباج يجلدني .. كوليت ! إنه دون جوان مزيف .. يرتدي قناع البلاهة الزائفة .. ريفي ضل الطريق إلى صحراء الشيطان ! الويل له .

اقتربت منه .. إنه تسلية .. نصبت مصيدة سهلة .. إنه (برياله) .. (أهطل) ينحدر لمستوى الحبشيات ! .. إنه من سلالة العبيد ! .. لن يحتمل (غلوه) .

*

خاطبت (صديقه) القوى .. أجذبه .. ينجذب .. يمشى خلفى مثل كلب لم يطعم اللحم من الف عام !

بدأت اللعبة بالهاتف .. ومكالمات نصف الليل .. وآهات .. النساء فى الصحراء وأوهام .. الأجسام .. ولكن آه .. هل بدأت اللعبة ضدى !

*

ما أتعس المرأة .. ما أتعس المرأة .. شق فاغر ! .. جُرح !

*

يبدو أنه سهل المنال . بلا عُقد ، لا يثق فى كل الناس ، جبان ، يستحق أن أذبحه تحت قدمى كوليت !

*

القلب مضخة .. القلب لعين .. القلب حياة .

*

أعطيته فرصة ، أنه عدو جميل ! سوف نذهب معاً إلى

أوربا .. الأميرة تلهو وتسمح لى باللهو ! .. انه يرحب بالرحلة .. بخيل ينفق من أموال الأمراء !

لا ادرى هل أكون سعيدة بالتجوال معه خارج نطاق الصحراء .. والأحكام العرفية غير المعلنة هنا !

العجيب أنه لا يطمع فى المال مثل كميل .. وإنه يحبنى فعلاً .. أم انه يتقن الدور .. لا لست (كوليت) أيها البحر المالح . لست كوليت يا خنزير البر ! لا تدعى البكارة فى أرض الدعارة !

نتجول معاً فى أماكن ساحرة .. زرتها من قبل ولم تكن بهذا السحر !

هذا الرجل غريب ! هل أفسده أم يفسدنى .. أمنحه نفسى بعد التطواف ! .. أجعله يدمن خمرى ويأكل من شهدى ! .. إن نظراته تجردنى من أسلحة الإنتقام !

يسألنى فى عشق من أنت ؟ هل يشك فى ديانتى . فأنا لم أصل !

ولم أردد أمامه سور القرآن ! .. لا أظن .. الأميرة نفسها لم تشك .. ولم تهتم فلديهم كل الأجناس .. انجليز وأمريكان .. وهنود وأحباش .. وبشر يعبدون النار وبوذا وكافة أشكال الوثن !

لا أظن انه يتمتع بعقلية الشرطى .. الأفضل أن أعابثه تحت تأثير الخمر .. وأخلط التاريخ والأحداث . يدور بيننا حوار :

- من أنت ؟

- إليك جواز السفر .

- لا اسألك عن معلومات صماء .. إنما أسأل من أنت ؟

- ألا تعرف !

- أنت محيرة .. لكنك فى كل الأحوال حبيبتى الوحيدة .

- يا دجال !

*

تبا لكل شيء .. كاد المريب أن يقول خذونى ! ينبغى أن أقلب النار بحذق . عواطفى تتجه إلي هذا الانسان ! غير معقول .. يالى من حمقاء .. كوليت .. كوليت .. يا نداء العمر !

*

كميل لا يكف عن الأوامر .. قابلته فى شقة صديقته فى لندن ..

- أنت ساحرة يا شهيرة .

- ماذا تريد بالضبط .. هات الأوامر !

- أنت . أنت

رحنا نتجول في الشوارع الفسيحة .. بحر النيون والعطور والمال والدعارة ! صديقي لا يشعر بالطوفان من حوله .. يبدو أنه يتجول في عالم من صنعة (هو) وكتلميذه لابليس .. رحت أتجول معه في حي (مايفير) وأراقبه .. أحوله إلى عبد شهواني !

وفجأه شعرت بالدوار .. متى ينتهي هذا النفق المظلم !

*

أحيانا .. أراه بعين ناقدة .. ناقمة .. يبدو كحيوان غبي .. يزحف على أربعة .. بين يدى مفتاح نارى .. يلهبه .. كيف انسى نظراته للحبشية ! انه سخيف ! انه يلعق كل جزء من جسدى ، كلب ، لسانه يستحق القطع .

أوه .. هل أنا عادلة ! .. إذا كان شهوانيا وعبداً للمال .. فمن أكون ؟ كوليت .. إرحميني !

*

ذهبنا إلى المسرح .. صديقي المصرى يعشق الفنون .. أثناء عرض المسرحية .. كنت أجلس كالبلهاء .. اللغة رفيعة .. شعر انجليزى لعين ! والعجيب انه نسيني طول الوقت .. أكثر من ساعتين ! وبعد انتهاء العرض .. خرجنا .. راح يتكلم معى عن المسرحية .. البناء الدرامي .. مستويات اللغة .. الديكور .. الاضاءة .. كدت أجن .. كم أمقت هذا الجو المصطنع ! .. ليته

يفهم .. إننى أرى فى الصحراء .. هناك .. مسرحا من أكبر مسارح العالم .. والمتفرج يتفرج إجبارياً .. متعة وأى متعه !

صديقى مثل الأطرش فى الزفة !

*

طرقت الباب .. ظهر كميل ..

- أهلا .. أهلا .. تفضلى . لك وحشة كبيرة يا مضروبة .

وكانت الشقة تستعد لقدومى .. الجلسة الشرقية .. الشراب والمزه والبخور .

- زهدت فى بنات بيكاديللى سيركس وفتيات شارع بيزو وتر Bayswater RD

- سبحان مغير الأحوال . أنت تحب التغيير .

- أنا انسان .. وربنا وهبنى الذوق الرفيع .

وفجأة تغير وجهة .

- هذا الولد الهلفوت .. ما علاقتك به .. أقصد المصرى .

- صديق .. من طرف الأميرة سارة .

- المهم .. أيعرف عنا شيئا ؟

- هل جننت ؟

- لا تلعبى بالنار !

- لا توصى حريص .

يرتاح .. يجذبنى إليه .. يلتقى « الصديق » مع كهفه المفضل !

أطفأت النور حتى لا أراه !

*

ذهبنا إلى المسرح .. جلست أراقب المسرحية ، وأراقب صديقى المولع بماكبث ، كأنه نسى صديقة تحبه ، تجلس إلى جواره .. يذوب فى محراب الفن الشيكسبيرى .

بعد إنتهاء العرض المسرحى . كان مشحونا بجرعة الفن وسحره .

ولقد سرح عقلى فى أشياء كثيرة .. تفسد هذه المتعة الفنية . مالى وساحرات ماكبث .. ونار مسرحي الخاص أشد ضراوة !

*

تأتى .. مثل رياح .. تشدو بأغنيات تغرى بالعشق والأحلام والسحر .. أتنفس نسمات دافئة .. تدفعنى إلى الصعلكة .

هل يستطيب الغريب سذاجتى .. أم يحنو على مأساتى ..

متى أنسى الغمام .. وأتلو عليه قصائدى الليلية !

*

لا مـجال للمقـارنة بين كـمـيل اللعـين وصـديقى المصـرى المسالم ، والذى يرانى بعين العاشق .

جلست فى صبـر ، أستـمع لصـديقى المصـرى ، يتكلم باحـتقـار عـجيب عن الأغنيـاء الذين يبعـثـرون الدولارات على ملذات عابرة .

يتحدث عن العنف ..

« ليس العنف هو القتل والحصار فقط .. هناك أشكال من العنف .. فى بلدان فقيرة تستدين لتأكل الخبز .. ثمة سيارات تجرى فى الشوارع .. السيـارة بمليون جنيـه ! هذا عنف ! وسبع فنادق فى القـاهرة .. يقولون عنها (خمس نجمات) .. تؤجر صالات الأفراح والحفلات الخاصة بخمسة وعشرين مليون جنيه شهرياً .. إيجار الصالات فقط .. فما بالك بالصرف والبذخ .. هذا عنف !

وحين تضيع أموال الناس أمـام عيـونهـم بفـضل عـمليـات النصب .. هذا عنف !

سألته : هل أنت شيوعى ؟

قال .. بالطبع لا .. وهذا السؤال لا معنى له !

استمع إليه .. وفى يدى الكأس .. وأغمض عينى .. هل هو من الحكماء ؟ من العقلاء .. من الفلاسفة .. أهو حاقد ؟ من الواضح أنه يفكر فى بلاد العرب .. وبلاد المسلمين .. لا يعرف أننى مسيحية .. وما أظن أنه سيكرهنى لذلك .. ربما يكرهنى للكذب ! .. وسوف يكرهنى قبل أن أقتله إنتقاما لكوليت .. أجل كوليت .. التى تتوارى كلما تكلم هذا الرجل .. أحاول أن اعتصم باحقادى أمام حبه .. مازال يغرينى بالانسانية .. لم يحاول إستثمار جسدى .. إلا بالحب ويعرض الزواج ! .. من الحماقة مصارحته بدوافعى .

*

يكرر صديقى المصرى .. وأتمثله فلاحاً فى ثياب أفندى . - كما كانت تصفهم كوليت - لا أفهم .. لماذا كل هذا الشر ! .. لماذا يحاول الناس قتل بعضهم بعضا وكلهم إلى مصير مؤكد ! الدنيا محدودة .. والغباء البشرى بلا حدود ! لو فكر الناس قليلاً .. قلّت الدموع .. وقلّت الحماقات والحروب !

*

حاولت التعرف على خلفيات صديقى المصرى ، بساطة مخيفة ، أحلامه ساذجة لا يفكر فى النفوذ والمناصب ! يفكر فى المال كستر وغطاء .. يكره العوز ولا يحب السيطرة ! حين ينام إلى جوارى .. يتحول إلى طفل برىء .. فى امكانى ذبحه

بلا مقاومة .. فى إمكانى حقنه بالسم ! لكنه - وهذا عجيب - يتحصن بهذا الاستسلام .. أمام الحقد .. والشراهة .. والمال والجاه .. يختلف عن الأقنعة المرعبة !

يزحف السؤال بطيئاً .. هل وقعت فى حبه ؟

*

فى بساطة - ومراوغة معا - يحدثنى عن علاقته القديمة بزميلته ، مصرية .. مجرد ذكريات قديمة فى أرشيف مترب ! يبدو أننى وقعت فى دائرة الإثارة والاهتمام فالمرأة التى يتكلم عنها .. موجودة هنا .. فى لندن .. ليست فى صفحات الماضى إذن !

يقبل يدى مثل طالب مراهق .. يؤكد لى .. أن سامية عز الدين مجرد زميلة .. وانها سيدة متزوجة ، سعيدة فى زواجها من دكتور محترم ، و... و... تظاهرت باللامبالاة !

*

فى غمار اللعبة .. الأميرة سارة يحلو لها أن تفهم ما يدور بين وصيفتها وبين أستاذ فقير ، لا يملك إلا القلب والكلمات ! لا تعرف أن فى صدرى ألف سكين .. ولكن نظراتها الماكرة .. لم تغب عن بالى أبداً !

المجنون يلح فى طلب الزواج ! .. أعطيتـه كل مـا يطلب الرجل من المرأة .. فماذا يريد ؟ هل لدى ما أعطيه له أكثر من هذا ! ماذا يظن ؟

متى يستيقظ .. إنه يحب إنسانه لا أعرفها .. شهيرة العربية ، المسلمة شهيرة المذبحة اللبنانية ، ولا شىء آخر .

لا يعـرف الخـراب الذى حل بنا .. النار .. اشـتعلت فى أرواحنا وأجسامنا ! النار التى اشعلت سراويلى .. و... النار التى حولتنى إلى عاهرة .. لا يعرف النار القديمة التى أشعلتها كوليت .. ذبيحة الغدر المجنون !

كيف أبوح لمن يعلن علىّ الحب ! كم أود أن أكاشفه بعمق النفق المظلم .. لن يفلح ألف مشعل فى تبديد الظلام .

متى أشم رائحة نظيفة ؟ وكأننى أقف فوق بالوعة مجارى !

*

الظلام دامس .. الدم يلطخ عقلى .. كيف أغسل يدى من جرائم بشعة .. جميع العطور فى بلاد العرب لن تذهب برائحة العفن .

تمنيت أن أتحرر بنهاية الأجل .. أو بالنوم الطويل .

*

قمنا برحلة .. يعطينى يده .. يمسكنى برفق .. ينحنى فى

قبلة .. نتجول فى الهايد بارك .. مناظر جميلة .. تصارعها مناظر الجحيم ! رأسى يؤلمنى .. دوخة .

يسألنى : ماذا بك ؟ أسمعه .. كيف أجاهر بحجم الآلام ! كيف أفسد هذا الحلم الجميل ؟ ماذا يبقى من صحبة رائعة ، الأشجار والورود .. وفى خلف ذهنى ألسنة النار .. وسلاسل وعبيد .. وقصور شامخة ، جاثمة فوق رمال الصحراء .. وسط لعنات مكتومة .

*

ما من أحد سوى المريض يعانى خرافات الأوجاع ! أشعر بأصابعة تعانق أصابعى .. أحس .. بشفتيه فوق جبينى .. دموعه تتساقط .. أى رجل هذا ؟ لماذا جاء !

*

مستشفى .. رائحة الدواء .. أطباء .. وسرير أبيض .. الخطر يزول .. تصفو الأحلام .. لماذا يمد الله فى أجلى ؟

*

رحت أتصفح على أحر من الجمر .. صفحات تكشف عقلية ووجدان شهيرة .. التى كشفت علاقتها بالمدعو كميل .. وديانتها ، وموت وحياة أختها « كوليت » وجانباً من علاقتها بى وما كانت تود أن تفعله معى - فكرة الانتقام - وكشفت

جزء من علاقتها الغامضة بالأميرة (سارة) ! وربما أضافت بعض الظلال حول نفسية الأميرة .. مما جعلنى في حيرة .. هل هى علاقة عمل .. أم إدارة لشئون خاصة جداً ! أكاد اشم رائحة جنسية ما بين السطور ! وإلا ما السر الذى تسيطر به على أميرة غنية مثل الأميرة سارة .. تقول لها أنها اعترفت لها ببعض اسرارها كالديانة والماضى ، ومع ذلك تسامحها الأميرة !

رحت أقرأ وأقفز قفزاً بين الفقرات وأربطها ببعضها والحوادث التى عشت بعضها . راحت السطور تفسر بعض غموض أجواء القصر !

توقفت أمام عبارات بعينها ، تخصنى ، تقول : « صديقى يعرض الحب والزواج فهل يعرف كل شيء عنى ! - أن يعرف القلب فى لحظة النشوة ! - كنت أضمة إلى في لحظة صدق وامتلاء ورغبة .. ثم يعود كل شيء إلى مكانه .. فى الكهف المظلم ! انه عانق القالب ولم يعانق القلب المريض ! وا أسفاه ! .. كيف أشفيه من داء الخيال .. ويعرف من أنا .. لست قالباً من القشدة .. لست ملاكا .. ولا قشعريرة .. ولا هزة راعشة وقت القذف ! من أنا .. كل هذا .. وجروح حرب .. وماضى أسود بغيض .. وبالتحديد .. من أنا .. لا أدرى ! »

« فى بعض الأحيان كنت أدعوه - بوسائل المرأة الشرقية - إلى مضاجعتنى .. وقبل أن تتم عملية الحب .. انسحب وسط الاستغراب والدهشة .. وصور البلاهة .. كنت استحضر

كل من اغتصبوني ، طفلة ، وشابة .. في السلم والحرب معاً ..
اللعنة ! ماذا أريد بالضبط .. هل هو عدوي ! لا أدري ! »

« تطوف كلمات مقدسة أمام عيني .. فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا ، منذ زمان أكثر من الأحياء الذين يعيشون الآن وخير من كليهما الذي لم يُولد بعد ! - ولم ير العمل الردىء الذي عُمل تحت الشمس » .

جن جنوني .. رحت أفتش عن شهيرة التي عرفتها .. وتعلق قلبي بها - حتى بعد الإعترافات - التي تعمدت أن تقع في يدي ..

خرجت أتجول في المدينة .. لم أعبأ بالمطر .. ولا بالنساء الجميلات .. ولا البضائع في المحلات ، وفتارين الزجاج .. سيطر على مفهوم تفاهة هذه الدنيا .. تفاهه هذا العالم .. أجريت اتصالاً بمن أعرفهم ، أسأل عن شهيرة .. ترتد علامات الاستفهام ! مازالت الشوارع تتلقفني .. ورأيت المدينة العملاقة .. قفصاً كبيراً للقرود .. وتخيلت كل الأشياء تتحلل .. وأصوات حولي تصطخب .. النقص هو الأساس في هذه الأرض ! لماذا جئت هنا .. لأقول في بلاهه .. بيت .. قصر .. كوبري .. قوس هزيمة .. طربوش .. ما الذي جئت لأجله ؟ ماذا أفعل ؟

أضرب قلبي بيدي .. أحاول تدمير مضخة الدم التي

تجمعنى مع القردة والزواحف !

الأقدام حولى مسرعة .. وحركتى بطيئة .. لا أستطيع السير أكثر .. دلفت إلى حانة .. فتيات البار فى لهفة تتلقف الزبون .. لا رغبة ، سوى دلق الشراب فى جوفى .. ولا أعرف كيف عدت إلى البيت !

*

أختفت المذكرات .. وحقائب شهيرة .. الدولاب خالى من ثيابها .. لاشىء سوى خطاب على المنضدة إلى جوار مزهرية تحت المصباح مباشرة .. رحت أفض الرسالة واقرأ السطور .. وأتمثل صوت شهيرة يقول لى :

« عزيزى .. تأكدت إنك قرأت الأوراق الخاصة بى .. وكنت أريد ذلك !

أيها الحبيب .. كان قاسياً أن تعرف عنى ما عرفت ! وثق أن كل سطر .. وكل كلمة كانت صادقة .. والحقيقة أكبر من كل هذا وأكثر بشاعة ! جاء الوقت لأقول لك وداعاً .. وداعاً يا أحب الناس ! لماذا ؟ لأننى لا أصلح لك .. ومستقبلى تحدد بما حدث فى الماضى .. فمن ينسى الماضى ؟ من يتجاهل التاريخ ! .. الشجرة التى تراها كانت بذرة صغيرة .. أرجو أن توفق فى حياتك .. ولا تتذكرنى بالخائنة .. أو الكاذبة .. ولا تذكرنى بالمخلصة الوفية .. إعتبرنى بطلة فى فيلم سينمائى شاهدته ،

بطله في رواية سخيفة ! وما أكثر ما نشاهد ونسمع سخافات !

أرجوك .. لا تبحث عنى ! فأنا لست لك .. وأنت لست لى ولأمثالى .. وربما لن تجدنى فى الخليج .. أتمنى أن أذهب إلى مكان لا تعرفه .

حاولت التخلص من سخافات كثيرة .. ولكن السخافات تحكمنا .. هناك من تبيع نفسها لمجرد وجبة ستقذف بها فى حمام ! وهناك من يقتل للمال والطعام .. وأى غاية وراء حياة مثل حياتنا ! كثيرا ما حاولت - في حدودى كامرأة شرقية - أن أثور على مجتمع القردة .. ودائماً .. الخيبة ! عقلى يقول لى .. ما ذنب البرىء بالشرس .. ولماذا أخلط بين مأساة أختى كوليت وبينك ! لماذا أتذكر الكرباج .. لماذا لا أتحرر من الدم والحرب والاغتصاب ! .. لماذا أنتحل ديانة ليست ديانتى .. فأنا لا ديانه لى .. وأن كنت اعتقد بوجود سبب لكل هذه الشرور والآثام !

لم أتخلص من فكرة الإنتقام .. وأن كميل سمسار وتاجر رقيق .. وأن الأيادى الجميلة التى تقبلها .. وهذا الفم الرائع الذى تقول فيه الشعر .. لا يقل عن فم دراكولا بشاعة واليد تحضن الحبيب وتمسك بالسكين وتقتل وتذبح ! وتسرق وتخنق ! لن أطيل .. فهذا فراق لا رجعة فيه .. ولا تحاول البحث عنى ، هذا من أجلك أنت .. وداعاً ... » ..

توقيع

شهيرة

هل أنا فى حلم مزعج ! متى أستيقظ من هذا الهول المهول ؟

لماذا تفعلين هذا يا شهيرة ؟ .. لا أعتقد أن سيفا قطع ما بينى وبينها ! لا أدرى كم من الوقت مرّ ! .. الغضب يعتصرنى .. ثم أهدأ بعد وضع رأسى تحت الصنبور ! .. الماء البارد .. الثلج ! .. لاشك أن ما حدث مجرد دعابة سخيفة .. مزحة رديئة !.. وسوف أسمع صوت المفتاح .. وفتح الباب .. وسوف تتجسد أمامى شهيرة .. قطعة قشطة .. وضحكة مبهرة .. ومرح بلا حدود .. ومدينة فرح ومرح ! ..

سوف أحتويها فى أحضانى وأغمرها بالقبلات .. وسوف أسامحها على دعابتها السيئة !

*

أنظر إلى الهاتف .. صامتاً كالحجر ! .. الباب موصداً لا طارقاً ولا ضيفاً .. هل توقفت الدنيا عن الدوران ! .. لماذا كل هذا ؟ لا جواب .

دقات القلب مثل طبول الحرب .. لا أحساس بطعم العالم .. أين السعادة وراحة البال ! القلق ينخر كالسوس .

*

الشارع مرة أخرى . الطريق بلا هدف .. المطر .. تراقب

العين – فى لامبالاة غريبة – حبات المطر ترتطم بالأسفلت ، تفور وتتلاشى .. السيارات تمرق .. الأشجار مغسولة دائماً .. وما تزال الأشياء تؤدى دورها ! الناس تمشى .. يتعاطون القبلات والضحكات .. ثمة مصباح أصلع يرنو إلى قبة السماء المليئة بالسحاب !

*

لماذا لا يفرح القلب ! والجو ينعش الجثث ! .. ما زالت الملاهى هناك .. والموسيقى وفرحة الجائع بشريحة الخبز واللحم الساخن .. العناق .. واللحم الأبيض .. وفتاة تمد ساقيها فى دلال تحت منضدة مفروشة بالأزهار .

فتاة نارية النظرات .. خطيرة النهدين .. تطل من بقعة كحل .. شمس خضراء .. تصب الكأس لى .. ولها .. البيرة تختزل الشمس .. الرغوة .. وعطر المرأة الحسناء وهى تلتهم شرائح اللحم .. كم أحتاج النوم .. مع شهيرة ! وليس معك ايتها الغريبة .. أووه .. لماذا أخاف من عبادة الشياطين الجدد !

*

دلفت يمينا .. تسوقنى الرغبة إلى (مكاننا) .. لأشم عطر شهيرة .. توجهت إلي نفس المنضدة .. (منضدتنا) .. وجدتها جالسة .. بقضها وقضيضها – (كما يقولون) – دبت

الروح فى الجثة ! .. الشعر الجميل يشدنى .. سوف أباغتها .. يا لها من شقية .. تعرف أننى سوف أبحث عنها فى أماكننا المفضلة !.. هل أغمض العينين كما يفعل الصغار ! اللعنة على كل مكان عام يحرمنا التلقائية والحب ! .. سوف ألقى تحية المساء .. قبلة .

- أووه .. امـرأة أخرى .. بنفس القالب .. ونفس الشكل .. غاص القلب .. تحول إلى قطعة ثلج !

- مساء الخير ..

- مساء الخير ..

- آسف .. كنت أحسبك .. صديقة ..

- لا عليك .. واضافت ساخرة : يحدث كثيراً !

البسمة تقلل من ارتباكى .. وأضافت بروح مرحة

- هل أشبه صديقتك ؟

- نعم .. من الخلف !

قالت بنعومة وبتلميح جنسى .. وبألفاظ ممطوطة : ومن أمام ؟!

- أووه .. معذرة .

فى جرأة لم أتوقعها فى مثل حالتى الذهنية : لا أعجبك .. ألا تغير الصنف !

- لم أقصد !

- تفضل أجلس .. واستمتع بوقتك .. أنا مثلك جئت للمتعة . وليس لى شروط .. أخرجت سيجارة من علبة فوق المنضدة .. أسرعت واشعلت عود ثقاب .. قدمت العلبة : سيجارة .. شاركنى ..

كأننا معرفة قديمة .. قالت : رجل وامرأة .. ومكان جميل .. وطعام وشراب .. فلماذا نركض فى متاهات متخلفة !

تقرأ أفكارى بسرعة .. تأخذ نفساً عميقاً من السيجارة .. كأنها مدمنة .. أصابعها رشيقة .. طويلة تنتهى بلون المانيكير .. بعد الشراب .. زال عنى التوتر .. رحنا نتكلم فى أشياء مختلفة .

تعمل عارضة أزياء .. فى محل مرموق .. تسكن فى قلب المدينة .. مطلقة .. تعسة في الحب والزواج .. تقرأ .. تحب الفنون .. تعشق الرحلات .. تعيش بلا هدف ! لكنها لا تتمنى الموت .. وتحمد الله انها أجهضت مرتين .. مرة قبل الزواج ومرة بعده . وقالت إنها تحب هذا المكان ودائماً تأتى هنا .. اسمها كريستين .

وحين جاء الجرسون ورحت أحاسبه على المأكولات والمشروبات .. لى ولها .. رفضت وأمام إصرارى وافقت .. ودعتنى بقبلة .. ولكن قلبى كان مثل الحذاء المثقوب !

*

شهيرة .. هل أتينا إلى هنا حتى تضيعين فى بلاد الثلج والضباب ! وكأنك سقطت من ضياء الشمس على غير موعد .. إلى بئر جليدى .

هذه الشقة الفاخرة ليست لى .. سوف أتركها فوراً .. ربما أرحل إلى أى مكان .. أو أعود لمصر .. فأنا أشتاق للأهل والنيل .

*

توجهت لزيارة سامية .. وقابلت عندها نداء .. والدكتور زهدى .. اليوم أحد .. الأسرة تحتفل بعيد ميلاد سامية .. لم أكن أدرى .. كنت اشتريت هدية ! سامية مرحة ، سعيدة بزوجها وأولادها وبيتها .. أكاد أقول نسيت حى السيدة زينب وخنقة القاهرة .. حاولت إخفاء تعاستى .

وجاء ذكر لبنان .. فقال دكتور زهدى .. تكمن المأساة بالدرجة الأولى فى الناس .. تخلف الشعب العربى ليس بسبب الاستعمار فقط .. وإنما الناس .. الطائفية والعشائرية فى لبنان

ودرجـات من التـخلف تكمن خلف الأزياء الجـمـيلة واتقـان الفرنسية واستيراد قشرة الحضارة .. الناس !

نداء ..ورذاذ المطر يعـانق اليـاسـمين .. (نداء) زهرة مصرية في بلاد الضباب .. جمال مصري .. وعقل منظم .. تعرف فن التنقيب عن جوهر الأشياء وليست قناعا مصريا .. نظراتها تقول الكثير .. لكن الرسالة لا تؤثر في جثة لامبالية .. تعاملني كما لو كنت مريضا في مرحلة نقاهة !

ترتدي أحدث خطوط الموضة الأوربية .. وتحلي جيدها بسبيكة عليها اسمها محفوراً بحروف هيروغليفية .

اثار رأيها خواطري .. خول ظواهر الطبيعة والعقلانية الشديدة الكامنة في العالم ! والعالم عند (نداء) هو الطبيعة والكائنات .

- أنظر يا صديقي .. كيف تتكيف الحيوانات والنباتات لظروف حياتها ، وللدنيا التي تحيط بها .

استمع إلى تحليلاتها .. وهي تنظر إلي بعينين ثاقبتين من خلال رموش طويلة كأنها تصد رمال المقطم . وكان حديثها دعوة للعقلانية وللتكيف مع العالم بكل ما فيه من متغيرات .

وإذا كنت أعتقد أن ذهابي إلى الخليج مجرد صدفة ،

ولقائى شهيره صدفة ، وكريستين قمة الصدفة !

(نداء) تعتقد أن الضرورة هى التتويج لأسباب عميقة ، تنبثق من طبيعة الأشياء .. تخرج من رحم الطبيعة . أما الصدفة فهى أشياء عارضة . إنها مثل كارثة انقلاب قطار ، وتصادم سيارة !

والانسان مهمته ألا يستسلم لمفعول صدفة من الصدف .. بل التصدى لها .. وتحجيمها ، وحصارها فى أضيق نطاق !

الدكتور زهدى لا يمل مناقشة أزمة الديمقراطية فى شرقنا السعيد ويتهكم على العقل العجيب وهو يركع فى قبو شديد العتمة .. وشعوب لا تمل تجديد الظلام !

الدكتور (زهدى) لا يمل من قصة النضال والرغبة في الصراع من أجل الحياة وحين أراقبة .. أجده قد انطوى تحت نظام الآلة الجهنمية .. عينة على طبقة رجال الأعمال .. والشئون المالية والتجارية .. دائم الحركة .. مشغول عن زوجته الفاتنة .. أطفال ساحرون يلتفتون حولهم .. الأم والأب فى حالة استنفار .. ومنذ الصباح يهرول إلى مكتبه .. يتحدث بشكل حاسم مع الآخرين .. متحفظ ، يملى رسائله العاجلة .. ويتحدث هاتفيا مع عشرات الأسماء فى وقت كثيف .. يكاد يكلمهم فى وقت واحد .. ونفس واحد .

(سامية .. بنت البلد ، رائحة السيدة زينب .. تلمس أعماقى بابتسامتها العذبة .. ولم تنس الكشرى والمصقعة والملوخية .. ربع قرن في لندن .. ومازالت تطبخ بنفس الطقوس فى ريفنا .. وتضرب الأمثال المصرية الشعبية . وتحافظ على الصلوات فى أوقاتها . طاهرة اللسان . تحض على عمل الخير . تسألنى - لماذا لا نتعلم من الحيوانات سر السعادة ؟ لماذا يطمح ابن آدم في أكثر من الصحة في الابدان والأمن في الأوطان . كلما سألت الناس حولى .. وجدت بينهم وبين السعادة .. مسافة شاسعة .. صدقنى ..بعضهم لا يفهم معنى كلمة السعادة .. فكيف يسعى إلى شئ يجهله ؟

- ربما هم سعداء ولا يعلمون !

- لاأظن يا صديقى العزيز .. الوجوه تقول انهم فى ضعف .. والعيون تقول لى إنهم فى كرب .. والتنهدات تقول إنهم فى أسى !

وكأنها تلمح لمشكلتى .. وهناك من يعشق الجرى وراء المستحيل .. حب وهمى والتعرض لمشكلات أكبر من إمكانيات الناس البسطاء .. ، ومنهم من تغتاله الغربة الأبدية .. ليس بعيداً عن الناس .. وانما غربة عن كل شئ .. فلا يفهم أن العمر فرصة واحدة .. العمر ليس مضمونا .. إنه مجموعة دقائق وثوان .

- وماذا فعلت الحضارة للإنسان ..

- الحضارة من صناعة الانسان .. الناس عندنا في مصر .. تضيق ذرعا بالازمات الاقتصادية.. معهم حق .. المواصلات رديئة .. وكرامة الانسان تنهك في الباص والطابور والجمعيات الاستهلاكية وفي كثير من المصالح الحكومية .. تحت لافتات غريبة تقول (كذا في خدمة الشعب) .. ولا أحد في خدمة أحد !

- وضعت يدك على الجرح .

- ومع ذلك فالناس تصنع ظروفها ..

ولكن كما ترى .. المشكلات في كل مكان .. الفقر أفضل من الصراعات العرقية وأقليات مهددة .. ليس في لقمة العيش .. وإنما في الحياة .. الدماء تسيل أرخص من المياه الصالحة للشرب .

- يبدو أن الغباء البشرى بلا حدود .

- ومع ذلك الانسان يجب أن يناضل ..

تابع زهدى جزء من حوارنا وعلى فمه ابتسامة .. وكان يقوم بتحلية الشاى وتقديمه لنا ..

قال دكتور زهدى مبتسما : زوجتي فيلسوفه وفنانه .. هي زميلتك منذ زمن قديم ولكنها أصبحت شيئاً آخر !

قالت نداء وهي تمد يدها إلى فنجان الشاى : شهادة في الصميم !

قال دكتور (زهدى) : مسألة الشقاء والسعادة ..

مسألة بالغة البساطة وربما يظن الناس عندنا .. أن امتلاك بعض الأشياء يجلب السعادة .. قلت الامتلاك لأدوات الحضارة يسهل المعيشة .

قال د(زهدى) : مدينة عملاقة مثل لندن .. أو حتى القاهرة .. تجد دائماً الزحام . زحام غرباء عنك .. غرباء ليسوا فى حالهم .. انما يهدفون للاستيلاء عليك !

علقت نداء باسمه : انت تعشق أفلام الرعب ..

قال (زهدى) : أتكلم جد .. الغرباء فعلاً يحتشدون حولنا فى الطريق والعمل وكل مكان .. كل فرد مشحون بمتاعبه الخاصة .. ولابد من إدارة دولاب العمل ، بمعنى احتراق الأعصاب والعمل إجهاد وإحتراق وقلق .. ولاحظ من حولك هنا .. تركيز شديد فى العمل ، معظم الناس يعانون من سوء الهضم . وربما يتوارى كل شئ ولا يبقى سوى التحدى .. النضال فى سبيل المادة .. والكفاح فى سبيل النجاح .. وربما ينسى الراحة .. ويفقد الإحساس بأهمية اللعب .. والترويح عن النفس ساعة بعد أخرى .. حتي لا تكل القلوب وتصاب بالعمى .. هذا الركض المخيف يفقد الفرد الوعى برفاقه .. وعلى فكرة جلستنا هذه جلسة صحية جداً .. ولابد من عمل مثلها على الأقل مرة كل أسبوع .. وقاطعته (نداء) : لكنهم يملكون المال بعد العمل .. اللبس الأفضل والتثقيف الأفضل والسعى وراء اللذة ومباهج المدنية !

قالت (سامية) : هذا صحيح ولكنهم يفعلون ذلك وهم في طابور لاهث ، واذهانهم مشغولة .. ويصرفون من أجل مباهج ضيقة .. وسرعان ما يستولي عليهم السأم .. فهناك عزم على المرح والصرف أيام الآحاد . وملايين الزجاجات تفتح .. والشراب والمفاجأة وفتح منافذ للمرح .. وتراهم بعد ساعات .. حشو .. يسكرون بسرعة .. الكل يخفى تقززه من الآخر ! .. وكم رأيت رجالا يبكون بعد السكر .

قال زهدى ضاحكا : يانهار أسود .. تذهبين إلى الخمارات من وراء ظهرى . وضجت الغرفة بالضحك .. حتى كادت نداء تستلقى على قفاها .

عقلى يعمل .. وشريط يجرى فى رأسى .. ونهضت قائلاً
- ليلة سعيدة ..

ونهضت (نداء) .. لنخرج سوياً إلى الشارع .

الشوارع ممتدة .. الجو ينعش الجسد .. التمشية مستحبة ، وكأنما أرغب فى الابتعاد عن سهام شيطانية تغزو رأسى . وأسعدنى حديث الأسرة عند (سامية) .. وأسعدنى تطورها ونضوجها .. ودعوت لها بالتوفيق مع زوجها الدكتور(زهدى) .. وقفز إلى ذهنى ذلك الغضب الشيطانى الأتى من ذكريات شهيره .. بل الآتى من جحيم الحرب الأهلية فى قطر يشتعل لأتفه أو أكبر الأسباب : (قبضايات .. أى والله قبضايات كلاب ..مجرد كلاب مسعورة .. شو يسموهم ميلشيا ..ألفاظ

غريبة وكلام فارغ .. وهم كلاب بيعتمدوا على كلاب كفره مثلهم .. كلهم أذناب شيوعية بلا دين .. شو نحنا »!

تتصل (سامية) بالتليفون : اليوم أخبار غريبة .. في الجرائد ..

- عن ماذا ؟

- جريمة أطرافها عرب .. يقول الخبر .. يبدو أن الدافع وراء الجريمة تصفية حسابات .

- من أى جنسية .

- من لبنان .. والجثة ممزقة تماما .. وهناك تلميحاً لأصابع عشيقة .

- لا أدرى ماذا يجذبك فى هذه الأخبار .

- بصراحة .. ذهب ذهنى إلى شهيرة صديقتك .

- يا شيخة .. غير معقول !

واشتريت الصحيفة .. الخبر غريب يبدو أنه (كميل) والبوليس الانجليزى يحفر فى الأعماق .. وصحف أخري تستعمل الخبر .. وتلمح تلميحات خبيثة ! (لماذا تصفية الحسابات فى بلدنا) .. وكلمات عن السياحة غير المرغوب فيها .. و(رجال أعمال .. أم عصابات)

اتصلت بالاميرة سارة فى قصرها .. خرجت لا يعلمون الجهة أو متى تعود ..!

الاشارة تؤكد الفاعل .. وتشير بشدة إلى المفعول به .

هل هذا معقول ؟ .. أى قضايا خاسرة !

لماذا نعيش مثل الحيوانات .. ونموت مثل الحيوانات .. متى نموت مثل البشر ؟

وبدأت رأسى تدور .. وتحس بدوران الكرة الارضية !

وصعدت إلى رأسى كلمات ملك تقلب فى الملذات بكل أنواعها .. وعرف مثلنا .. الخمر ، واستمتع بالموسيقى والرقص والأغانى ، وتقلب فى الثراء وكان قصره يغص بالخدم والجوارى الحسان .

ارتفع صوته العميق - عبر آلاف السنين - إلى عقلى .. إلى قلبى « فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد ، الذى لم ير السوء الذى صنع تحت الشمس » .

رحت أمشى أراقب الحافلات وأنوار الشوارع وسلاسل الفضة تنهمر أمام عينى .. خيط المطر المنعش .. أتخيل شهيره إلى جانبى تمسك يدى .. وأعطيها الأيس كريم .. وأشترى لها دمية تلعب بها كطفلة في العاشرة .. أحسها تتأبط ذراعى . تتعلق بى .. تحتمى بى من كوابيس الحرب والتشرد .. شهيرة المسيحية .. المتعطشة للانتقام من كل الخونة .. من كل من اغتصبوها .. وتخطط للانتقام لاختها كوليت .. وللانتقام لنفسها من (كميل) .. وتنتقم من عيون خليجية .. وجوارح خليجية .. وأموال كانت النار فوق البارود !

في البداية - وشريط الذكريات ينهمر مع المطر .. وبرودة لندن . والمساء الحر .. لم أر شهيرة متفوقة عن أترابها من النساء .. بل امرأة تريد أن تثبت لي أنها مازالت أمرأة .. لم تكن جارية في قصر الأمراء .. ولم تكن من السادة !

وكانت مفتونة بذكائها ! .. الحرب أحرقت فيها الطفلة الخجولة .. والتي تحتفظ بعروستها .. وتلعب في فناء البيت مع أبناء وبنات الجيران .. ربما كانت ضئيلة الجسم .. لكنها قوية ..سعيدة ..تلهو وتسعد تحت سماء صافية وحمام ينعم بالسلام .. وتسعد الاسرة باشياء صغيرة .. مثل كل البيوت السعيدة والتي لا يسمع بها صوت ولا صراخ !

ولعلها فقدت السلام لأول مرة .. حين أعتدى عليها شاب في ظلام أحد الليالي .. قاومته وناضلته وحاربته وخربشته .. لكنها في النهاية لم تستطع أن تصد عضلاته القوية .. أمسك بذراعها وجذب ضفيرتها بعنف .. ورأت المدية في يده .. لم يرد سرقتها .. كان يشتهي جسدها .. لم تصرخ حين رأت المدية .. وأغمضت عينيها .. وسمع الجبان صوت سيارة شرطة .. فتركها وهرب ! وعرفت أنها فتاه .. وأنها ضعيفة .. وفهمت لماذا تمشي الفتيات معاً في أسراب .. مثل أسراب البط في أثناء العودة من المدرسة الثانوية ! .. وكان بروز الثديين .. وخرطة الجسم .. وسيقان لا يسترها ثوب طويل ! .. أنها طعم وطعام .. انزعجت .. وابتسمت وأغمضت عيناها وسألت

نفسها : هل تمتنع فعلاً السير فى الحارات المظلمة وحدها ؟ وهل تستمتع أن تكون ضمن أسراب البط ! .. أنها تتطلع إلى المدينة الواسعة .. وتراقب مجموعات المتشردين .. وتذهب إلى البحر تراقب الأمواج .. والجوارح وهى تنقض على فريسة سهلة .

شهيرة .. مجموعة حكايات لا تنتهى .. تفتح قلبها للغريب المصرى .. في أحد قصور الخليج .. وكانت الشمس تأكل الرؤوس .. وتبهر الأبصار .. وتميع الأسفلت فى الشوارع المراقة والممتدة بلا معنى .. وكأنها لا توصل إلا للرمال والصحراء والمتاهات !

كتبت كيف تعاملت مع الشباب فى سن المراهقة ! وكيف كانت تكره المنازل القذرة .. والشوارع المكتظة بالنفايات .. بعيداً عن الواجهات السياحية وجاءت الحرب بالبشاعة والقلق والجوع . وتحولت زميلات المدرسة إلى بائعات هوى .. لا يقبلن الهدايا .. ولكن النقود .. أكبر كمية من النقود .. أصبحت شفاههن تنزلق نحو الأعناق وتستقبل القبلات .. الحرفية ألغت احتراق الملمس العذرى !

لم تقل لى شهيره عن عدد الرجال الذين ضاجعوها فى السلم والحرب !

وماذا يعنى العدد! ماذا يفيد السؤال فى مكان هو الملك الخاص للشيطان .

وحاولت أن تنسى الأوقات العصيبة .. حاولت شهيرة .. الاعتراف لي وبالاعتراف المكتوب .. ولا أدري هل (ساره) تعلم كل شئ عن وصيفتها .. كل شئ مثلما أعرف أنا ؟

أيضا ماذا يهم ! بالي منْ ساذج ، غبي ، ضائع ..

لا يتوقف المطر .. وخيوط فضية تنقطع عبر أعمدة النيون!

شهيره .. هربت من جحيم الحرب .. إلى جحيم الصحراء .. وفي باطنها جحيم الذكريات وانتقالها من نار الموت إلى نار أخرى .. نار الحسد .. قالت لي مرة :

- هل تعتقد في الحسد ؟.

- مذكور في الكتب ..

- هل تعتقد في (الحسد) لمجرد أنه مذكور في الكتب ! .. أمرك عجيب وأضافت بشراسة أفقدتها الكثير من جمالها :

- الحسد هو الأساس الأول للديمقراطية ! فكل انسان يعتقد أنه الأفضل .. أنه الأحق بالرئاسة والوزارة .. أنه الزعيم الملهم .. والقائد الهمام .. وأنه الأذكي والأصدق .. والأكثر نظافة وطهارة .. والأكثر مثالية والأحق بنعيم الدنيا وفردوس الأخرة.

وأتذكرها وهي تشرب الكأس .. وتتكلم وكأن الدم في فمها .

- هل تعرف لماذا يحب الناس النكات الجارحة ! .. ولماذا تشيع الفضيحة والصحف الصفراء . ولماذا التهافت على الحط من شأن الاخرين .. أنه الحسد .. مجرد أن تظهر إمرأة

جميلة فى ثوب أنيق .. لاحظ عيون النساء وشفاهن .. نظرات نارية ورغبة فى تمزيقها والحط من شأنها !

كل امرأة منافسة للمرأة الأخرى .. وكل رجل منافس للرجل .. منافسة أساسها الحسد .

- هذه خطبة رائعة عن الحسد ..

- أسفة .. وكأننى أريد أن أطلعك على أحشائى .. بل أحشاء العالم كله ولا أدرى لماذا !

نعم (شهيره) . لا أدرى لماذا ؟ .. لماذا أسير فى الليل .. هكذا .. تحت المطر .. وسياط الذكريات ..لماذا ننساق فى الظلام .. وننقل الخطى فى عتمه سميكة .. وتدهمنا الحوادث .. خبط عشواء .. منذ زمن والقصة تتكرر ولا يستفيد الانسان .

يصعد الصوت من أعماق الحكمة عبر آلاف السنين : « كل الانهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن .. ما كان فهو ما يكون ، وما صنع فهو الذى يصنع ، فلا جديد تحت الشمس .. ليس ذكر للأولين والآخرين أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم »

دلفت إلى الحانة .. حيث كنت أقابل شهيره .. وأسعدنى الحظ بمقابلة كريستين . نفس المنضدة .. يبهجنى أنها خالية .. كما لو كانت فى انتظارى وكم أتمنى أن أسجل ملاحظة عن سعادة الشخص بمكان معين سعادته .. بشخص معين !

وتوقعت أن أرى كريستين .. سوف تدخل من هذا الباب ها قد أقبلت كريستين مثل ورده يانعه - سوف يرقص القلب طرباً .. ربما يجدد القلب أفراحه !

أحضر الساقى الكأس وذهب ..

رأيت شهيرة تجلس أمامي .. مثلما رأيتها فى أسعد الحالات .. تحدثنى عن الحب ..

تقول بصوتها الناعم : الحب يجعل المرأة رائعة الجمال ومثيرة .. هكذا يقول الشعراء .. فماذا تقول ..

- لاأجمل من هذا القول ..

نظرت فى الكأس .. وجدت صورة شهيرة تبتسم .. تخيلتها تقسم أنها تعبدنى وأن حياتها تغيرت بعد معرفتها بى . ولكن الصورة تهتز .

أضع قطع الثلج .. ترتفع حركة السائل .. بالإزاحة .. نعم .. قانون الازاحة لماذا لا أستفيد به .. ولماذا درسوه لنا فى المدارس .. لم أطبقه فى تجارب علمية .. لماذا لا أستفيد به فى تجاربى العاطفية .. كتل الثلج تلمع .. صورة (نداء) فى كامل الصحة والسعادة .. سامية فى إطارها مع (زهدى) والأولاد لا شأن لى بالأطار ولا بالمحتوى !

سألت نفسى .. هل أنا مجنون ؟

تقترب كريستين .. تتجه نحوى

- مساء الخير ..

- مساء الخير ..

كان لديها رغبة أكيدة في انتزاعى من حال الوحدة المقيتة .. والمؤكد أنها تفهم حالتى . تعرض كرمها .. تريد أن تطعمنى عشاءاً فاخراً على حسابها ضحكت وقلت مداعبا .

- هل ورثت يهوديا ؟

ابتسمت وقالت باشراق : الليلة تشاركنى مسراتى الصغيرة .. هل أكلت الكفيار الروسى ؟ سوف نشرب ونأكل الكفيار .. سوف نضرب الدنيا كلها بالحذاء ! .

سوف أكون نذلا إذا لم أشاركها المرح .. الموسيقى الحالمة .. واحتضن صديقتى كريستين فى رقصة ناعمة .. وسط حشد من الناس .. جاءوا يصنعون البهجة ..

سألتنى : لماذا تتعذب يا صديقى ؟

- الحب ! .. قلتها هازلا

- الحب كم يسئ الناس إليه

يقولون أن حلوه مر ..

- من يقول هذا ؟

- شاعر تعس مجهول .. وكاتب من كتّاب الأغانى .

- ولماذا نردد كلمات التعساء ؟

- ربما الصدق !

- ربما .. الكلمات نفسها .. فكل قلب له عالمه ودنياه . وكل عقل يفهم ما يريد !

الجو جميل .. الشوارع مبتلة . ثمة مصابيح ترسل الضوء الحالم .. مصابيح رشيقة .. أمام بنايات جميلة . نسمع خطواتنا .. ويرتمي ظلنا .. لا أدرى لماذا أحببت كل العالم فجأة .. حتى السور الحديدى المدبب .. والبوابات العالية ولافتات النيون .. والاشجار الرحيمة فوقنا .

قالت : لماذا لا تأتى معى .. نكمل الجلسة فى مكان الخاص . نشرب الشاى .

الشاى .. بعد الويسكى والكفيار .

- عندى ويسكى .. ومكان دافئ لذيذ! Cozy Corner

من يرد صاحبة هذا الصوت الحالم .. أصابعها تحتضن كفى .. رسمها إلى جانبى .. عطرها يسطعنى .. صعدت بعض السلالم .. وانا أتبعها .. فتحت باب غرفة ..

الدفء اللذيذ .. غرفة مرتبة أنيقة .. كل شئ وضع في مكانه المناسب

- مع من تعيشين ؟

- وحدى .. أيها الحمل الوديع ، لا تخاف .. فلن ترتكب حماقة بينما زوجى ينام فى الغرفة الأخرى !

- زوجك ؟

- أمـزح .. ألم أقل لك أيهـا الحـمل الوديع .. فـالذئب يبـحث عن الإثاره .. ولست من ذئاب البـشـر .. أنت حـملى الوديع .

شـــريط الصحــراء .. والقصـور المعلقة .. ودمـاء حـارة .. وسـيف فـوق الرقـبـة وشـوارب وذقـون .. وجلبـاب أبيض .. وطيب .. وعقال !

- فيم تفكر .. ؟

- فى طقوسنا الشرقية ..

- اسمع عنها .. ولكن النـاس هنا أمـرهم مـختلف .. الآله حركتهم والوفره .. والضجر .

- هل أدخن .. إذا سمحت ؟

- لا بأس .. سوف أحضر مشروبا .

قالت كريستين .. الناس هنا يكدحون .. ويسعون للمتعة والاثارة كلما جاء المساء ونحن كفتيات نمقت حياة جداتنا .. ونكره تزمت العصر الفيكتورى ولا نحن إليـه .. نقول سحقاً للجو العائلى السعيد .. لدينا السيارة والتليفزيون والمسرح .. والتدفئة فى البيت .. ونفعل ما نريد .. ونتقابل مع بعضنا بمنتهى البساطة .. كما هو الحال بينى وبينك الآن ! لا مشكلة .

- سكنك بسيط ولكنه جميل ..

- وسعر الايجار معقول ... أتفكر فى الاقامة هنا .. بجوارنا ؟

- ياليت . ولمدة شهر

- شهر واحد فقط .. لا بأس .. الحجرة فى الجوار مباشرة .. يمكننا أن نتخاطب بطريقة بدائية .. وإبتسمت .. ستكون نعم الجار وسوف أتصل بصاحبة العقار أو بمكتب السمسار .. واتصلت بالهاتف تنفذ ما طلبت بجدية .

كنت فى حاجة إلى التغيير ، لعل كابوس الماضى القريب .. يتلاشى .. وماذا أحتاج غير شقة صغيرة .. وصحبة من إختيارى ..

ذهبت إلى المطبخ .. وتجولت فى أنحاء غرفة المعيشة .. على الأرفف مجموعة من الكتب .. ومجموعة أخرى على المنضدة .. كتب فى تخصصات مختلفة .. طب وأدب ونقد وفلسفة وتاريخ سألتها : يبدو أن القراءة .. ركن أساسى فى جدولك اليومى .

- هى الزاد الحقيقى فى عالم متهافت ، استهلاكى .

- أرى مجموع من الروايات إلى جنب الفلسفة والتاريخ وكتب الطب .

- الرواية هى مرآة حياتنا ، وتطلعاتنا وأوهامنا .. قرأت هنرى باريوس ، اتش ج ويلز وسارتر وكامى وهيمنجواى وجويس وهيرمان هيس وفرجينا وولف ودوستويفسكى

وتولستوى . إلى جانب كتابات وليم جيمس ونيتشه وبرتراند راسل وكير كجارد .. وفى اليوم التالى كنت أستأجر الشقة المجاورة لها .. ولكننى قضيت الليلة فى غرفة كريستين . نتحدث ونستمع بدفء لذيذ . تستوعبنا مشكلات انسانية جداً .

*

تبدو كريستين نموذجا للجمال ، شعرها الذهبى المسترسل أتطلع إلى عينين لامعتين فيهما زرقة السماء والبحر .. تحاورنى بشفتين ممتلئتين شهوانيتين . أضم صدرها الممتلئ فى دائرتين لا تعرفان الترهل .. وتسبح أصابعى فوق البطن الناعم .. إنها تمتلك جسداً موسيقياً رائعا .. ليست فى حاجة إلى التبختر أمامى وهى تسير ، لكنها تفعل ذلك فى حالات عرض الأزياء .. فتتجسد خطوط الموضة .. ولكن كيف أمتلك هذا الكيان البهى ؟..

إن لكريستين نفس حائرة ! .

واحتفلنا بطقوسنا الخاصة .. وبعد الانتهاء من ممارسة الحب .. سمعت صوت الدش بوضوح خلف ستارة البلاستيك ..

وكان قلبى الجاحد يقارن بينهما وبين شهيره .. وكان شيطانى يقول أنه من المحال أن تحل أمرأة مكان أخرى .. كريستين رائعة .. لكنها أكثر بساطة .. أما شهيره فاكثر قدرة على اشعال النار فى كيانى .

*

مـاذا لو أردت الاقـامـة الدائمـة فى لندن ؟ .. ولماذا أطرح هذا السؤال البـغـيض يبدو الأمر المألوف لأبناء جلدتى هناك .. إنهم يتكلمون عن الضمانات البنكية والدراسة فى الجامعات .. والزواج من انجليزية ..

وفكرت فى كـريسـيتن .. إنهـا تقـدس الصـداقـة والحب .. والعـمل .. وهى تفكر أيضـا فى الفـرار من (لندن) .. رغـبـة فى التجديد ! . سـمعتـهـا تقـول .. أوربا ليـست بلاد المهـجـر ..وسـوف تعـانـى الأقليات فى الأيام القـادمـة .. وسـوف تكون الحروب القادمة دينية وعرقـيـة . مـن أراد الـهـجرة .. فليـتـوجه إلى أمريكا الشـمالية « كندا - والولايات المتحدة » أو امريكا الجنوبية بلاد بكر .. ولقد ذهب المغامرون إلى استراليا ..

وقـفـز إلى ذهنى حـديث قـدسـى مـعناه يقـول « عـبـدى لا تطالبنى برزق الغد .. فانا لا أطالبك بعمل الغد » .

*

كريستين متعة فى تفكيرها .. عـالمها .. شـاهدت معـهـا بعض عـروض الأزياء ورحت أراقب المجتـمع المخـملى .. ورأيت تطلع الانجليزيات إلى الأسـماء الكبيرة والسلع المشـهـورة ولماذا الانجليزيات .. يبدو أن التـفاهات عالمية . ينبغى أن أستمتع بما يدور حولـى .. لا بما يدور فى عقلى السـقيم ! .. الناس تصنع البهجة وفنون الحياة .

تذهلني كريستين .. تعمل وتكد .. وتواظب على حلقات الدرس .. والقراءة لا تمنعها عن الشرب والتدخين والرحلات وجلسات الأصدقاء .. لها صديقة مقربة جداً ، تحصن نفسها ضد الكآبة والتفاهة .. يبدو لى أنها تمتلك كل شئ ..شباب وصحة وعافية وجمال .. وكأنها تملك العالم .. وفى لحظات تبدو لى ضعيفة هشة تقبض على لاشئ .. فى لحظات الوهن .. تكون قريبة إلى نفسى !

سألتها فى حب استطلاع هل أحببت مهنة عارضة الأزياء .

- عملت فى العديد من المهن .. مثل بائعة فى محل حلوى ، وفى محل كوافير ، وعاملة في مصنع للملابس .. ورأت زميله لى أن جسمى جميل .. وقدمتنى لمصمم أزياء .. قدمنى بدوره إلى مؤسسة كبيرة للأزياء . ووفقت فى العمل .

- أتحبين هذا العمل ؟

- لست مكرهة على عمل شئ .. أعمل وأحب واتقن ما أعمل .. ولا تنس ، لست أميرة .. ولا ورثية .. ولا يعولنى أحد .. ولا أحب أن أكون عالة على مخلوق .

- هل أستفدت من مهنة عارضة الأزياء .

- طبعاً .. إلى جانب الفلوس .. بصبصة الرجال واعجابهم .. رأيت لعابهم يسيل إلى جوار أزواجهم ! .. ولمست حقد

النساء القبيحات .. وأى عمل يمنحك الحرية .. فالنقود فى اليد .. رحمة فى مجتمع كلّ شئ فيه يثمن بثمن ولا مكان للمفلسين !

كريستين خريجة قاع المجتمع الانجليزى . اشتركت فى نوادى القراءة .. فى صغرها .. وتعرفت كيف تغشى أماكن اللهو والمراقص الصغيرة مع الفتيان .. وحين تيسر لها بعض المال انتظمت فى الدراسة الأكاديمية .. ولم تهمل الرياضة فالتحقت بنادي ومارست لعبة التنس وحصلت على ميداليات وجوائز . وقدست فكرة الحرية عند أمها ! . دائماً مشغولة بحقوق الانسان .

وحين فكرت كريستين فى الزواج - وهى الجميلة الذكية الاجتماعية - أدركت أنها ضمن مشروع يأسر إمكاناتها ! وعاشرت الرجل .. وعرفت كيف تمقته بعد سنة واحدة . وتعرضت للحمل .. فلجأت للاجهاض ! رأت .. الزواج يحصرها فى العمل المنزلى ويستعبدها لوظيفة التناسل ! وخاصمت من يقول إن الاجهاض جريمة ضد الجنين نفسه !

كريستين تأبى أن تكون تقليدية .. إنها أميل للجدل والنقاش .. ولعلها تفعل عكس أمها التى كانت دائما تتجنب النقاش .. والجدل ! .. وإذا كان ضروريا أن تدلى برأيها .. ربما نطقت كلمة مبهمة .. أو صوت .. مثل (أوه .. أكيد .. نعم

.. ربما أظن ذلك .. لا أدرى)!

كريستين تبحث عن الاستقامة .. فكيف تتجنب الملل ! .. العلاقات الفاشلة فى رجل يريد أن يريد أن يكون سيداً للبيت ! .. والأطباء يقبضون ثمن علاج اضطراب الاعصاب وعمليات الاجهاض !

تجنبت معاشرة اللصوص والقتلة .. رأت بعينها ما يفعله الشباب فى مثل عمرها .. من تعاطى المخدرات بكل أشكالها .. ورأت أجساد مثل الرخام والقطيفة تلقى على الأرض .. وتتكوم فوق الأرصفة .. وتتقلب فى أكوام القمامة !

اكتفت كريستن من عالم اللذة بالشراب والصداقة .. والعلاقات المفتوحة والانتقاء فى ممارسة الحب .. سوف تكون صديقة للرجل .. وللمرأة على حد سواء ! وتضحك من الأعمال الفنية والأدبية التى تصور المرأة على أنها جسد .. مجرد جسد يرتبط بجسد الذكر ! .. ويرتبط بالليل ويتضفر بالموت .. وكأن المرأة تنقطع عن الأرض وحركة الحياة !

وتسخر كريستين من تصوير المرأة على أنها لغز الحياة ! ولماذا لا يكون اللغز فى كل شئ .. فى الرجل .. والحيوان .. والحياه بكل صورها !

ولعل كريستين - وهى نبت المدينة الضبابية - ترفض الرموز والتعميمات والطلاسم !

ومع كل ذلك . ظلت تعشق الشعر والحب والأحلام وتسحرها الأماكن الجديدة والوجوه والأفكار الجديدة .. تريد عالماً بلا جدران !

وجدت كريستين تقرأ عن مرض اسمه « الزهايمر » باهتمام بالغ .. وعرفت أن أمها ترقد فى مصحة قريبة .. تعانى من هذا المرض اللعين ..

تقول كريستين : أنها تنتظر مصيرها المحتوم .. المريض المسكين يتآكل من أهم مكان للبشر .. المخ !

كانت تقوم بزيارات منتظمة لها .. عرضت عليها أن أرافقها فى الزيارة القادمة وفى الطريق أشتريت باقة جميلة من الورد .

وصلنا المصحة .. وجدت أمرأة ضعيفة البنية .. زحف البياض على شعرها الاشقر !.. لا يخلو وجها المجعد من وسامة .. يبدو أنها تجاوزت العقد الخامس بقليل .. تجلس فوق كرسى وتحدق فى بستان المصحة .

قالت كريستين والدموع فى عينيها : ما معنى أن يعيش الانسان وهو يفقد ذاكرته كل يوم ..

أمسكت يدها برفق .. تقول فى حزن : الطب لم يجد حلاً .. الناس مشغولة عن الحياة .. يدفعون للأسلحة .. ويقتلون بعضهم لأى سبب !

قلت مواسياً : الأبحاث تتقدم !

هزت رأسها المؤكد . يا صديقي العزيز أن (الزهايمر) ما زال لغزاً قبيحاً !

- أعرف أنك قرأت الكثير عن هذا المرض

- هذا صحيح .. ولست متخصصة .. ولكن أريد معرفة ما يحدث لنا ..

المزعج أن هذا المرض وراثي ! .. هكذا قرأت بعض الآراء .. والعلة تأتي من الرواسب البروتينية - وبلغة الدكاترة بتا أميلويد Bata amyliod وتكمن فى مخ المصاب .. وهى محاطة بنيورنات ميتة ! وهذه الرواسب تعرض لمرض « الزهايمر » !

- ولكن ماذا عن البتا-اميلويد

- انها المادة الطبيعية التى تفرزها الخلايا السوية وتنتشر فى الجسم !

فى بلازما الدم وأيضا فى السائل الشوكى Spinal fluid وتوجد في نيورونات الأجنة أيضا .. هكذا يقولون فى أبحاثهم اللعينة ! اقتربت من السيدة المريضة .. وقدمت لها باقة الورد .. وانحنت عليها كريستين تحتضنها وتقبلها فى حنان . وأشارت إلى وهى تنهض بقامتها .

- هذا صديقى المصرى .. من بلاد الفراعنة .. جاء إليك بهذا الورد الجميل قالت الأم : شكراً .

ابتسمت كريستين : هل يعجبك ؟

تبتسم الأم وهى تنظر ناحيتى : الورد .. أم صديقك المصرى ؟

انحنيت أقبل يد المرأة المريضة في محبة .. وأحببت خفة ظلها ، وقلت فى صدق .. سلامتك يا أمى .. ألف سلامة .. ودعائى لك بالصحة والعافية .

وعانقت أصابعى أصابع يد كريستين .. ورأيت الدموع فى أجمل عيون انسانية .

*

انتهت الزيارة .. وعدنا من المصحة .. وفى الطريق اشترينا بعض المأكولات حتى لا نترك الثلاجة خاوية .

والعجيب أن كريستين بعد الرياضة والعمل والقراءة والعلاقات العامة . تعرف كيف تستمتع بوقفة المطبخ . فهى تحب الطهو الانجليزى .. وتطهو الكثير من أطايب الطعام .. وتحب البيرة الانجليزية .. وكان لها فضل معرفتى بالأنبذة الفرنسية الحمراء .. ولها طقوس شبه مقدسة فى احتساء الشاى الهندى .. تقول كريستين ونحن على المائدة : - اعجبك الطعام ياسيدى .

- ما حكاية سيدى ..

- ألا تحب أن أكون جاريتك ؟

قبلتها .. وقلت لها .. بل أنت سيدتى وسيدة أجدادى منذ عهد رمسيس الأول !

كادت تستلقى على قفاها من الضحك !

لعل ما أنكرته فيها - فى بعض الأحيان - رائحة التبغ - كيف تدخن الملائكة ؟

ولعنت صناعة التبغ الحامى .. ولا أدرى .. فإننى ألعن من يُقلد الآخرين .. ولا يمكن أن يكون التدخين عادة نسائية !

كريستين تعرف كيف تصنع البهجة .. إنها تعشق النظافة والدفء .. تحب مجالستى فى ضوء الشموع .. فتصبح المائدة قطعة من السماء وموسيقى كلاسيكية .. وكأس يتألق بالشراب اللذيذ .

لعلها كرهت لندن المتجهمة الباردة .. فتصنع لندنها فى البيت .. وتتمنى أن تستغنى عن التدفئة الصناعية .. (ما أجمل الحياة فى خيمة نضربها فى عمق الصحراء) تكره افلام العرى والجنس (تجارة الرقيق الأبيض .. عمل حيوانى بشع).فى حناياها شئ من الحزن .. لماذا ترفض من جديد فكرة الزواج والإنجاب .. وكان الأجدر بها أن تبحث عن تكوين أسره .. فقد عاشت بلا أب .. وها هى تترقب المرض وهو ينهش فى وجدان الإنسانه الوحيدة التى ربطتها بالعالم .

وأحيانا تتمرد . فلا تقدس أى شئ .. سوى الحياة نفسها ..

*

لماذا تحمست لصداقة كريستين وولوج عالمها .. هل لأنها عملية تعويض بعد فقدانى لشهيرة هل لأننى أعاشر فيها حضارة أوربا بكل ما فيها من كوابيس .

لماذا تختلف عن (نداء) والأخيرة مصرية وصغيرة وجميلة وغنية وبلا تجارب خشنة ومن أصل معروف ! .. أهى حاجتى للأنثى الجميلة .. كانت صديقتى شهيره تقول لى وكأنها تقرأ الغيب « أنت لا تحب أن تكون حافياً .. يلزمك امرأة ياوغد الأوغاد! » ربما ما جذبنى إلى كريستين بساطتها وإنسانيتها وجرأتها .. فهى تحدق فى قاع البئر بلا خوف ! والعجيب أن تجد الوقت - والمتعة - لتعيش عوالم هيمنجواى وسارتر وكامي وباربوس . وتحلق مع شكسبير وتقوم بتفسيرات للنصوص فتجد أن قهر الزمن عند ويلز ، مثل جدول يتدفق فى نشاط ، يحمل معه كل الناس - بمنتهى السعادة - ليقذف بهم فى الهامش .. فى المنفى .. ليتلاشوا كما يضيع الحلم عند مطلع الفجر !

*

تتأنق كريستين ، وتجعلك تشعر بالحياة الحلوة .. وتضع لمسات المكياج في براعة .. وتمشى مشية موديل .. وتجلس وتقوم مثل عارضة الأزياء ، كأنها طيف ! سألتها عن الملابس التى تعرضها للطبقة المترفة وإلى أى حد يمكن للملبس أن يعبر عن (الثقافة المالية) - إذا جاز التعبير - قالت وهى تعبر عن سعادتها بالسؤال : المرأة تحب الانفاق على الملابس .. وبشكل عام فالملابس هى التى تعرضنا أمام الآخرين . وتظهر مستوانا المادى . تماماً مثل موديل السيارة الحديثة .. والسيارات الغالية الدالة على الرفاهية .. هناك فرق بين المرسيدس والفيات . والمازدا والرولزرويس . وهناك من يلبس ملابس غير مريحة لا تناسب المناخ .. لمجرد المظهر ! أقصد إضفاء لمسة الثراء والاحترام . وتحاول شركات الموضة أن تستغل هذا الحس .. وليس فى هذا جنوحاً ساذجاً للقدرة على الصرف وشراء الغالى من الثياب .. هناك قوانين الذوق .. ولعبة الاناقة . شركات الموضة ..تقدم الجديد .. تساند الناس في التقاليع .. فهم يلبسون على كفالة اسم شركة ما .. وكأنهم - في كثير من الأحيان - يتجنبون المهانة وتقولات الناس .. وملاحظات الجيل القديم .. من ترهلوا .. وأصبحوا مثل سكان متحف الشمع !

- واعتقد ياكريستين أن بعض تقاليع الموضات النسائية ضد المرأة العاملة .

- هذا صحيح .. إذا تأملت بعض القبعات الغريبة المستحيلة الاستعمال . والأحذية ذات الكعب العالى جداً (الكعب الفرنسى) إلى شواهد الفراغ الضرورى ولمعة الحذاء .. الكعب العالى يعوق العمل اليدوى . وينسحب هذا على التنوره والملابس النسائية الداخلية ، دعك من مشدات الخصر ومبتكرات تكبل حركة المرأة وتقيد حركتها - وتقلل حيويتها باستمرار .

تنتهد كريستين وكأنها تتحدث عن مرض وتقول : ماذا تفعل فى مجتمعات مختلة .. ومعيار الوجاهة - فى الملابس - هو الصرف والانفاق والإسراف والتبديد .

-ولكن على ما أعتقد أن الحركات النسائية تتصدى لهذه الموجات ..

- عندنا ما هو أهم .. موضوعات المساواة فى الأجر والإجهاض وغير ذلك .

أما عن العبث والإسراف .. فمسألة ثقافة وذوق .. والدعاية تلعب دورها . وعموماً الإسراف منفر للذوق الوطنى فى أى بلد من بلدان العالم .

وعلى كل حال .. ثبات الحال من المحال .. والمجتمع يمر بمرحلة نفور من طراز جديد وجميل إلى آخر .. والذوق يتأرجح بين القبح والجمال .

.. ثمة إسراف على المظاهر من الأسر الغنية .. ولذلك تأثيره على الطرز .. وتقلب الأطرزه وتغيرها .. والمسألة لا تخص ملابس النساء بل والرجال ولكن فى ملابس النساء أوضح كما ذكرت فى الكعب العالى والتنوره وشد الخصر وكأن المرأة المتحضره أصبحت أسيرة لهذه الأشياء الغريبة .. وبديهى أن الإعلان يقوم بعملية تهذيب .. وبدأت الاعلانات الفجة تختفى . وأصبحت المسألة البحث عن التميز المهذب !

*

لا أنكر تأثير كريستين الايجابى علىّ .. ورحت أقلب فى قاع المخزون .. ثمة أشياء قديمة ، تحتاج إلى تنظيم وترتيب وحذف واستبعاد .. فمن الميسور علىّ الهرب من الأشياء .. أبرزت لى كريستين أن أوربا ليست نموذجاً يحتذى .. يكفى توقفها أمام الفاشية .. واستعراضها لبشاعة محاكم التفتيش ! .. وأمدتنى - وهى فى معاناتها - بطاقة كبيرة . جعلتنى أعيد النظر فى ما يشغلنى من مشكلات .. الجعبة مملوءة .. ليس شهيره سوى بقعة .. وماذا كنت أبغى من الركض فى الصحراء وراء المال ! دون هدف كبير .. هدف عقل يفكر ويتأمل .

وعبر الأيام .. تتحول الحوادث إلى خليط غريب .. ينسكب فى الأعماق وينحدر إلى منطقة مظلمة ، مجهولة

وقد يصعد عند اللزوم .. مثل سائل العسل بعد التخمر !

ولماذا أفر إلى أى مكان .. شرقا أو غرباً .. وكأنما يحترق سروالى !

فى ذاكرتى الحروب الكاذبة والشعارات غير المقدسة .. وكيف تضيع ايرادات مجموعة من المواطنين فى غمضة عين تحت شعارات العدالة .. أو بتخطيط عصابة .. وكيف يستخدم والأوباش سلطاتهم .. ويتحقق لهم تحقيق الأغراض الدنيئة تحت سمع وبصر القانون .. وكأنها اجراءات لابد منها !

لهذا فرت أسرة (نداء) وبنت نفسها فى المنفى الاختيارى .. فلم تر من العالم غير النظام الديمقراطى .. ومع ذلك فهى متعلقة القلب بالوطن الأم !

أجريت مكالمة هاتفية مع أسرتى فى القاهرة . وكان الاتصال من غرفتى .. وفرحت بأصواتهم .. فكأن المسافات ألغيت .. ولكن ها أنذا بعد المكالمة أعود إلى (غرفتى) وغربتى.. أتابع فى التليفزيون الانجليزى ما يدور فى العالم .. كوارث رهيبة متتالية .. ثم ايقاع موسيقى مريح .. واعلانات ودراما .

*

عادت كريستين ، محمرة العينين من أثر البكاء ، سألتها عن سبب حزنها قالت فى صوت منكسر : ماتت أمى ..

تعانقنا فى حزن ! كنت أضغطها إلى صدرى ، كأنها أختى الصغيرة ، وكأننا فقدنا معاً الأم الرحيمة ! .. رحت أواسيها .. وحمدت الله أننى إلى جوارها .

*

يسير المشيعون بخطوات بطيئة ، عددهم قليل ، بقع سوداء تتحرك .. تطل علينا أشجار أغصان مرتعشة . وسماء ملبدة بالغيوم ، وجو من الحزن والأسى . المارة يفسحون الطريق لسير الجنازة ، ويرسمون بأصابع مرتعشة ، باردة ، علامة الصليب . وعلى الوجوه الألم . سمعت همهمة : كانت سيدة طيبة .

- رحلت المسكينة !

- مع المسيح .. هذا أفضل !

أصابعى تضبط - بحركة تلقائية - الرباط الأسود المتدلى من عنقى .. ورأيت بعضهم بدون رباط عنق أسود والبعض يضع شارة الحداد فوق الذراع .

التابوت الخشبى يحتوى المرأة .. كشفوا الغطاء حتى تراها كريستين وتودعها ! انحنت كريستين وطبعت قبلتها الأخيرة ، أعادوا الغطاء . راحت المسامير تبرق فى جسم التابوت . وتبرق الدموع فى العينين الحزينتين .. تبدو كريستين رائعة فى ثوبها الأسود! .. الصمت يهيمن على الجميع وهم يغلقون غطاء

التابوت بمسمار قلاووظ ، بعض الرجال يتشحون بالسواد ويعملون في صمت وآلية .. حركاتهم محفوظة ومكررة .

يختلط حفيف أوراق الأشجار بأنفاس الناس ، ويقطع الهدوء نشيج العجائز .. وسيدات يتمخطن فى مناديلهن الورقية .

ومهما كان الايقاع بطيئا - ولعل هذا احساسى وحدى - فكل شئ يتحرك إلى الخطوات النهائية . وجدت الدموع تنحدر من العينين وترسم خطين متوازيين في الوجه .. وتلتقى ذراعى مع أصابع كريستين الحانية فى لقاء حميمى .

وانطبع إلى الأبد منظر التراب يهيل على التابوت .. وتختفى داخله المرأة التى أرضعت كريستين وربتها . وتختفى كل المشاعر والذكريات والأسرار التى لا يعرفها أحد ، وبأصابع خائفة يضع كل فرد من المشيعين وردة حتى تكوم الزهر فى شكل يمس القلب . وكان لابد أن ينصرف الجميع ، تركناها وحدنا فى حفرة سوداء مع أعمالها . الله وحده يعلم ما سوف يحدث بعد ذلك . ولا أعنى الجثة والدود! وعبثا حاولت انتزاع عقلى من الحفرة السوداء .

*

تركنا السيارة بغرض التمشية ، لا يتوقف المطر .. تشعل كريستين سيجارتها تبدو متماسكة ، واقعية وكأنها مدربة على فكرة الفقد ! .. التمشية تهدئ الأعصاب . وصلنا البيت .. كريستين تشكرنى .. وتدخل لتخلع ملابس الحداد .. وقالت : أحتاج دشا .. وسوف نتناول معاً شيئاً من الطعام .

دلفت إلى حجرتى وأخذت بدورى حماماً ساخناً منعشاً ، وكأنما أزيل بالماء المتدفق أطنان التراب عن روحى !

*

ذهبت بعقلى إلى أسرة تعيش فى القاهرة . أسرة تفتتها الأهواء والأنانية الأب مطحون بلقمة العيش وعمله الحر يجذب كل وقته ويمتص عافيته ، وأم تفنى صحتها فى العمل اليومي الروتينى . ففى الصباح - الفجر - يوقظونها سواء رضيت أم كرهت .. صوت المنبه الأكثر بشاعة . وبعد صلاة الفجر توقد النار وترتدى ثيابها وتجهز الأفطار للزوج والصغار ، وسندوتشات للأولاد ، وعليها أن توقظهم وترتب الفراش وتخرج بعضه إلى الشمس .. وتعود لغسل الأطباق بعد الأفطار ثم المسح والكنس ، وتخرج إلى السوق تشترى الطعام ، وتعود للمطبخ .. وتروح وتجئ فى البيت وكأنها مُسخَّرة ، وهناك من يربطها فى طاحونة .. إنها لا تكف عن الدوران وهناك التدبير ومتابعة الصغار واستقبال الزوار من الأقارب والجيران .

لم أراها إلا عبدة فى الآله الجهنمية المسماه بالبيت . ومع هذا فهى راضية ، شاكرة حظها!

والأولاد يعودون من الخارج يصيحون : الطعام ! وكأنهم في نزل أو فندق .. ولا يفكر أحدهم في غسل طبق !

تتراقص أمامه صور مصر الفاطمية .. ويتذكر المسرات الصغيرة . ملابس العيد وصوم رمضان ، والكنافة والقطايف .. والجلوس حول المائدة في انتظار مدفع رمضان وقت المغرب . والأب يصنع بنفسه - على غير المألوف والمعتاد - طبق السلاطة والبنات مع الأم يصنعن الحلوى .. وتزدحم المساجد ، وترتفع الحناجر ، ويشحن الجو بالتراتيل . القاهرة تسهر حتى الفجر .. وفي أسراب يتحرك الناس لزيارة ضيوف الأمس .. في الصحراء . ويحملون (الرحمة) ويوزعونها على أرواحهم .

لم يمنعه تشرده بين العواصم أن يرهف السمع إلى أماني الناس في كل مكان .. كيف ينسى قنينه الرمال وسط الصحراء .. وقصور الأحلام .. وتحتشد الأسئلة تبحث عن إجابات وحلول حول الفقر والإستعمار الجديد .. وأمنيات وحدة الصف والهدف ! والنكبات والنكسات والانكسارات .. ونيران تشتعل لتنطفئ فتشتعل في مكان آخر .. لتحرق أمنيات جيل بأسره !

ومن فوق المنابر يهدر صوت عميق « أنه لا يؤمن من بات شبعان وجاره جوعان »

يضع رأسه على وسادة ناعمة ، تختلط الروائح الشرقية ، المسك والعنبر ، وصور نوافذ الأرابيسك . وبقعة ظل فى مقهى ، وأمامه قدحاً من القرفة . وأحاديث مع الرفاق حول المشاريع والأحلام .. ولكنه يعود فيطير إلى المنافى البعيدة .

يسمع طرقات رشيقة .. إنها كريستين ، تنقذه من جولات لا تنتهى .

تبدو فى صورة جديدة تماماً .. ما هذا البهاء .. من يصدق أنها منذ لحظات تتقنع بلباس جنائزى .

- تعال الطعام جاهز ،

*

خرجنا إلى العالم الخارجى . وكريستين مثل «كونيتسة» إلى جوارى .. دخلنا مكانا يزدحم بخلق الله .. أغلبهم شباب يمرح .. يجلسون حول مناضد مستديرة .. مفارش أنيقة ومقاعد لامعه موزعة فى دوائر . والديكورات توحى بالمرح والاتساع وموسيقى تتغير وفقاً للرغبات . وحلبة تضم من يرقص تحت أضواء وألوان كريستين تصر على الحياة . تنسى الدفن والوقار .. تتصرف بحرارة وتلقائية شعارها : عش يومك ..

المكان يحثك على المرح . شباب يتعانون ويضحكون ويأكلون ويشربون ويغنون مع صوت الموسيقى ولا يتباعدون إلا

وفقا لحركة الرقص . والمكان يتسع بأعجوبة كي يستوعبهم ، ويحتوي حركاتهم . البيرة والثلج .. وكؤوس تقرع .. والعرق يلمع في الجباه والخدود .

كريستين تتألق أمامي .. انظر إلى شفتيها الممتلئتين اللامعتين الشهوانيتين . انحنى تجاهها .. اخطف قبلة امتنان . ينعكس الضوء الأحمر على شعرها، وينسكب على الكتفين العاريين . وتتوهج قطرة على قوس حاجبها .. المسافة بيني وبينها تكاد تتلاشى .. ونتجاوب مع ايقاع الموسيقى .. تطل الشمس من نظراتها .. ونرقص ونرقص .. ولا نتعب .. ولكننا نعود إلى المنضدة ، نغرق مرة أخرى فى الكراسى المريحة . ونعب البيرة المثلجة المتألقة .

صوت الموسيقى يهمس حولنا.. ونتابع الراقصين .. حركاتهم المحمومة البدائية تسعدني . وكأنها رقصات أفريقية . وأرى الشفاه تتلامس . وأصوات تتأوه وأطراف تتقارب وتتباعد . وكأنما مكامن الأسرار سكنت في الأطراف والأصابع . تعكس المرأة صورتنا .. أبدو مثل الأمراء .. تلك نكتته أخشاها .. ويؤكدها .. لون بشرتي ونطقي .

كريستين تنقر بأصابعها فوق أصابعي وتقول من خلال إبتسامتها الساحرة .

- لماذا تصمت وكأنك تمثال بوذا ؟ أراك تحدق فى الناس بعينين نصف مغمضتين . وتغيب عنا كمن يصلى صلاته الخاصة .

نفس الملاحظة .. تأخذها على (شهيرة) .. مع اختلاف النبرة .

فاينما ذهبت . تشدنى الصور .. تجذبنى .. وأتمنى التعمق فى الجزيئات . إننى - كل مرة - أرى الأشياء جديدة .. أراها لأول مرة . وأعرف بأنها مسافره عنى وكأنما أسعى - بطريق خفى - لمعرفة العلاقة بين الأشياء . ثمة علاقة دائما بيننا وبين الأشياء .. وبين الأشياء وصانعها .. ولا أملك أزاء البحث سوى سلاح الصمت ، والرقه الخالصة غير المصطنعة ، وربما سلاح السخرية وكم تجادلت مع أصدقائى : هل نحن أحرار . لا يمكن أن نكون أحراراً .. حتى لو أطحنا وخلعنا السلاطين والأباطرة وكل الطغاة .. تبقى الطبيعة .. الطاغية الأكبر !

لم يبق من معنى للحرية .. سوى أن أقول آكل .. أسافر .. أنام فى الساعة كذا وأغلب الاوقات لا نقدر بالرغم من مواثيق حقوق الأنسان وقوانين حامورابى .. (والميثاق) ! .. ولقد انقذتنى التأملات من دنيا العجرفة التى سافرت إلينا جيلاً بعد جيل . ولعل كريستين تشاركنى اليقين بأننا أبناء

الطبيعة وقد نستحم في وسط لا يبهجنا دائماً . ولابد أن نستجيب للأقدار !

قلت لكريستين : الصور أبلغ من الكلمات أحياناً .

الرقص والموسيقى ، والأضواء المتدفقة لا تسمح بأناشيد الغفران !

إنظر إلى كريستين .. إلى عينيها .. أرى وردتين لامعتين .. عكس نظرات أمها التي عرفت قتامة المرض ، وناضلت في صبر .. حتى وصلت إلى مثواها الأخير .

تغتالني ذكريات مدن الشمس .. وريح صحراوية حاقدة ، وأجواء مقيتة تفتقد معاني الأنسانية .. وحولك المدججون بالمال .. والمؤتزرون بالمال .. ومن يستنشقون المال . ويصبح مجرد مومياء غير مقدسة ! .. ليس أمامك سوى عمرك .. تقطع يومك إرباً إرباً .. وتبعثره إلى كلاب الفوضى وغربان الهم !

وقد تشعر بالفرحة حين يموت جارك .. لأن الدور لم يصل إلى رقبتك بعد !!

في مدن الملح والشمس .. عليك أن تعتاد الأنفاس الكريهة ، وتقتات السموم وتستنشق الجير في الشهيق ، وتخنق شرايين القلب .. وعليك أن تناضل - عبثاً - سياط الصيف الجهنمي !

هناك في مدن الملح .. تعرف على أبناء جلدته .. خلعوا الأقنعة الرحيمة في وقت إظهار العورة . وظهرت أنيابهم القبيحة ! ولصوصية الأصابع المدربة على الأخذ بلا شفقة . تسمع صرير الكلمات وصدأ المعاني .. تعاني من الطنين الأجوف في أنشودة قديمة .. (بلادي بلادي ..)

حاول أن يرسم الصورة الكاملة . فيراهم ويجالسهم في الحدائق الخضراء .. في ليل يهرب من الصهد .. وكأنهم يجلسون في فوّهه بركان ! أسُر مبتهجة ترتدي ملابس جديدة .. تغطي الحداد العميق .. ضحكات تسمع منها بهجة الإعدام . ونسوه مثل الغربان السوداء . يراهم يشربون الشاي ، ويأكلون العشاء في تلذذ أهل المجاعات ! .. ومن تحت لتحت .. يتبادلون لذة النظرات المحرمة .. الكل يشتهي لحم غيره - في دناءة مدهشة - وشباب محروم .. يحوم .. انطلقوا من معاقل الفساد والبلطجة والاستهتار .. يتحصنون بالمال والفراغ .. وتلتقط مخالبهم ما تسمح به المقادير بعيداً عن سوط السلطة !

في بلاد الغربة - حيث الشرق السعيد - الألوان لا طعم لها .. والغبار فوق الأشجار الخضراء الواقفة مثل ديكور ، مصلوبة في ديكور عبثي ! ومهما التهمت من شرائح البطيخ الاحمر المثلج .. ودلقت في جوفك المشروبات الباردة .. فالانتعاش بعيد ..

ليس هناك سوي الخمول ، ومضاجعة لزجة ، ليس للشفتين المنفرجتين سوى رطوبة تحاول الفكاك من سجن الصيف وقهر الظمأ !

وتكون الأميرة (سارة) .. زهرة الصحراء اليانعة . وتظهر (شهيرة) ومعها سياط وأشباح وأساطير ونيران وأهواء وشهوة بلا حدود !

لن أكون جاحداً، حرارة الصحراء وحرارة شهيرة .. رمال ناعمة وكتلة شهوانية عارمة لن ينسى جسدها اللين سوى مجنون .. ونظراتها تخترق الحجب وتلمس شغاف القلب ! وعيون ترسل سحرها إلى مكامن الرغبة والجنون ! .. وكان الحر في الخارج ينضج التمور المعلقة فى النخيل .. ويبهر العيون بألوان الزهور فى أركان غير متوقعة ! لازالت الشفاة الممتلئة تشعر بالامتنان .. والرموش ترسل أحجية السحر وأساطير الغرام !

وكانت الرعشات تنتقل تارة فوق السرير .. أو فوق كنبة أو على الأرض ! وكم شهدت أشجار الحديقة شهقات العصر . تستدعى شياطين المدن المجاورة ! وشهيرة من انتقلت بى من الخليج إلى قلب أوربا .. ولست على يقين .. هل ماتت أم اختفت .. (ما زالت جميلة أم تشوهت .. هل قتلت (كميل) كما تمنت أم إن الجمال لا يقتل .. وإنما يعشق ويحب .. ويتنامى .

ياللشيطان .. اليقين .. اليقين ..

متى كانت رغباتى حرة ؟ هل كانت أيامنا من اختيارنا ؟ .. ماذا أنجبت النيران ! ماذا حملت الريح إلى جسورنا القديمة !

مازلت أحيا فى لحظاتنا القصار .. والأحلام تطاردنى .. فالتمس لدى كريستين روح الحياة وعلاج يستعصى العلاج !

ليتنى أستطيع نسيان رحلة الخليج ! حيث كانت هامات النخيل والقصور الشامخات والأميرة سارة وأسطورة شهيرة الهاربة من نيران لبنان !

ليتنى أنسى .. وصال لم أسع إليه .. وأنما صادفنى فى رحلة قيظ ! وظلال السيف فوق الرقبة !

*

ينبغى أن أعيش الواقع وأتذوقه .. وأنا فى عاصمة ضخمة تضخ الفكر والسياسة وفى قلبها أرى كريستين تغدو في الطريق .. بحذائها اللامع تدب الكعب فى الأسفلت لتوقظ قلب لندن ! .. تسير في كبرياء . فى شوارع ممتدة . كيف ينصرف بصرى عن قوامها الممشوق .. تختال فى أبهه ! وكأن الشارع كله تحول إلى عرض من عروض الأزياء التى تقدمها فى رشاقة واستاذية وتلقائية تأسر القلوب .

أسمع صوت فرملة سيارة تتوقف فجأة .. تحدث صوت مثل صوت عظام تكشط بعنف لكائن حى ! .. ليراقب السائق

الماجن سمانه الساق الرائعة عبر تنورتها التى ترتفع إلى أعلى بفعل الهواء .

كريستين تعمل وتعيش لتجمع بين الكرامة والحاجة .. والقوة والضعف .. ولن تبذل جسمها الجميل ! .. لن تكون صديقة للأولاد الأثرياء .. فى مدينة المال والعشاق وفى قلبها شوق لسماء صافية ! .. أتخيلها تعبر بالوعة المجارى وكعبها الأبيض يعتقل الدم وهى تدوس الأرض .. وكأنها تلمسها لأول مرة .. وكأنها من سكان السماء . وفى كل خطوة تنتقل من الحب إلى خطأ متوقع ! .. وفى كل توقع حياة واردة ورغبة فى أن تحيا الحب نفسه !

*

لم أصدق أن تتحول « شهيرة » إلى ذكرى ! .. مجرد زهرة برية فى صحراء كئيبة البسمة فى مناخ منافق جبان .. وأن تتوارى اللقاءات فى دهاليز الذاكرة . وينكمش قصر الأميرة سارة .. ويصبح فى حجم رأس الدبوس !

- إيه صديقى ..لبنان جنة الله فى أرضه .. جنة فيها الفرح والحزن .

- الحزن كيف ؟ حدثينى شهيرة .

- فى لبناننا .. يعيش الحزن خلف الجمال .. مثلما السكون عقب الحركة .. يعلمنا الجبل أن أشجار التفاح والزيتون تتحول إلى غصون شديدة الجفاف ! والحرارة تكاد تحرق كل شئ !

- إذن أنت جبلية ؟

- لا تفهمنى خطأ أيها الفرعونى اللئيم .. جحيم جبلنا أفضل من الجنة (هون) .

*

وفى مقهى جميل جلسنا .. والدنيا فى المساء رائعة .. والهواء ينعش الفؤاد .

تقول كريستين

- لماذا لا تهاجر ؟

- أين ؟

- الدنيا واسعة .. أمريكا - كندا .. استراليا .. بلاد شابه

تشرب البيرة وتقول : سوف أترك هذا البلد العجوز !

وسألتنى بجدية : ألا تسحرك الأماكن الجديدة ؟

- جداً . ولكنى أخشى العنصرية .

- كندا بلاد لا تعرف العنصرية .. مجرد مثال .. وأنت مستثمر ! وسيرحبون بك .

فكر .. الأمر يستحق !

*

فى الغرفة وجدت .. كريستين تشعل سيجارتها أسألها

- أراك مهمومة .

قالت : افكر فى الهجرة .. احتاج بداية جديدة . من تحت الصفر ! دائماً أسأل هل أنجزت امكاناتى ! هل عبرت عن قدراتى ! ما هى رسالتى ؟ قلت مازحاً : هذا تفكير كبار جداً !

قالت بجدية : لا تسخر منى أرجوك .. أنا لن أكرر قصة أمى .. ولن أعيش حكاية مكررة .. علاقات وأكل وشرب ونوم ولهو .. وعمل لا يقنعنى .. أهم شئ أن أعمل عملاً يقنعنى .. يكون له أهمية .. ليس بالنسبة للناس . وإنما بالنسبة لى .. الناس يعيشون حياتهم كأنها واجب ! .. ولا يستثمرون من قدراتهم العقلية واحد فى الألف .. يفضلون حياة البهائم ! صدقنى القلة القليلة هى صانعة هذا العالم .. والباقى مجرد حيوانات .. كائنات بيولوجية .. مستهلكة .

نظرت اليها وجدتها ثائرة على شئ ما .. وأكملت حديثها : أنظر إلينا .. إلى الناس . نشرب الخمر ونعرف ضرره .. وندخن ونعرف الضرر ونخون ونقتل ونسرق .. ونرهق أجسامنا فى أشياء غير مجدية . يخيل إلى أن حضارتنا على مشارف الهاوية !

قلت بهدوء - على طريقة الشرق السعيد - : والحل ياصديقتى ؟

سكتت .. ونظرت الى السقف وقالت وهى تضغط على الحروف وتعنى ما تقول تماماً : التحرر من كل أشكال الرق ..كل أشكال الرق !

*

وحين انفردت بحالى فى غرفتى .. استعرض الرحلة من أولها .. وشريط أخضر ثم شريط جبلى أصفر .. ونيران ووجه حسناء تبكى ثم جبال وضباب وحسناء تركض باحثة عن معنى. وأسأل أين أنا .. ما هو دورى ؟ وكيف السبيل إلى الفرار من نفاق موروث وفساد وطغيان ! ولماذا أرفض طوق النجاة .. وأرفض الحب .. نداء تمد يدها فى حنان . تريد أن تعطى وتأخذ .. وكريستين تركض فى خريطة واسعة وبعقل مفتوح وهى أكثر إيمانا .. فرب المشرق .. رب المغرب . فى وقت ما رأيت أن أخلع قلبى .. مثلما يخلع المسلم الحذاء على عتبة المسجد !

وأتعامل مع الناس .. هات وخذ .. ولكن وجداني يقول .. الحياة ليست سوقاً وليس ميداناً للسمسرة ولعب القمار !

الحياة منحة لا ينبغى أن تضيع فى التردد . هذا الجمال فى الطبيعة .. والناس .. كيف أغلق العين عن البحر والأشجار والطيور .. كيف أمتنع عن العيون النقية .

لماذا أجعل العطش يستبد بى .. واللهب يسكن أعماقى ؟

لن أسأل كيف تتلاشى (شهيرة) .. فلن أترك شيئاً يضيع .. مادام الوعى والصحة والعافية وكم يبقى من الرحلات غير دخان وذكريات .. مثل سماعنا قطعة موسيقى ..

اذا كان الحمام يطير في حرية .. والسنجاب يتقافز .. وقطعة الكبد فى جنبى تعمل ..

فأنا قادر على الاستمرار والاختيار .

وترن فى أذنى كلمات كريستين .. الحل يكمن فى التحرر من كل أشكال الرق وقمت وأرتديت ملابسي .. وقررت أن أخرج إلى العالم .

نبذة عن المؤلف

- أحمد عبد الله متولى
- من مواليد القاهرة ١٤/٣/١٩٤٣.
- مخرج رسوم متحركة وحيل سينمائية بالتليفزيون المصرى .
- حصل على العديد من الجوائز الأدبية .
- نشر أعماله فى الدوريات والصحف المصرية والعربية .
- قدمت له الإذاعة أعماله الإبداعية والدراسات الفنية والنقدية .
- كتب أكثر من عشرين سيناريو تليفزيونى لاسيما لافلام الكرتون . وأخرج فيلمه (السلام) عام ١٩٩٧ رسوم متحركه بأسلوب الكمبيوتر جرافيك والفيلم التسجيلى .

* نشر

١ - العبور من ثقب الإبره مجموعة قصصية ١٩٩٢ هيئة الكتاب .

٢ - الهمسة الصاخبة مجموعة قصصية ١٩٩١ - المجلس الأعلى للثقافة .

٣ - الهامشى والبحر رواية ١٩٩٣ الهيئة العامة لقصور الثقافة .

سلسلة أصوات أدبية عدد ٣٨

★ **تحت الطبع**

- دراسات فى الأدب والسينما
- العابرون (رواية)
- من قتل الشيخ مسعود (رواية)
- المسافرون في الروح (دراسات فى أدب الغرب)
- لغة السينما .

(دراسة)

- الرؤيا الإنسانية فى شعر غازى القصيبى (دراسة)
- النار والجسور الذهبية (رواية)
- ترنيمة العشق والدم (مجموعة قصصية)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الترقيم الدولى (I. S. B. N. - 977 - 235 - 844 - 1)

رقم الإيداع ٧٩١٥ / ١٩٩٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٣٦٣٦٩ س ١٩٩٦ - ١٠١٤

رواية ممتعة تمتد فى أرجاء العالم الواسعة لترتاد الحفرة الضيقة من الاغتراب التى يعيش فيها الإنسان . وهى تصور أوجها مختلفة من الاغتراب . ومن محاولات التحرر منه . كما تقيم تقابلا بين بلاد النفط الخليجى فى طرائق الحياة وبلاد الغرب المتقدمة لتصل إلى ضياع . وقد يوحى العنوان بالرومانسية ولكن المؤلف يمضى إلى ما هو أبعد من العواطف الشخصية . فيعمل مبضعه فى نفسية بطلة شديدة التعقيد متعددة الجوانب .

